الفصل الأول

"الأصالة الشرقية" بين " الإنكار والتأييد"

ويشمل:

أولاً : تمهيد

ثانياً: " منكروا" الأصالة الشرقية

١- زيلر

٢- الكسندر

٣- برنيت

ثالثاً: " مؤيدو" الأصالة الشرقية.

١- سارتون

٢- هوبهوز

٣- أورسيل

٤- توملين

٥- كولر

٦- "برنال" وموسوعته "أثينا السوداء" والأصل المصري -الشـــامي للحضارة اليونانية.

رابعاً: تعقيب.

أولاً : تمهيد:

أجمع جُلّ الباحثين في تاريخ الفكر الإنساني، أنّ من أجل ما تركه الإنسان من أثر يتمثل بالإبداع الفكري الفلسفي، فالإنسان أمتار عن غيره بفكره وقوته العاقلة المدركة، حيث لا حظ ظواهر الكون على اختلافها، فتصورها، وكون له فيها رأيا، ثم راح يبحث عن عللها، وعلاقاتها بها، وتأثيرها عليه، فإن فعل الإنسان هذا قلنا عنه أنه يتفلسف، بمعنى أنه فكر فيما يحيط به من ظواهر ومتغيرات، محاولاً الإجابة عنها من خلال التساؤل، عن حقيقة الأشياء وأصلها، وصلتها مع بعضها، وصولاً إلى (موقف) يشيع (الطمأنينة) في (داخل الإنسان)، ويطرد الخوف والتردد والخشية من أسرار هذه الظواهر من داخله، ويزيل شكه.

فيتفلسف هنا، يعنى البحث في ماهية الأشياء وأصولها، وعلاقتها بالإنسان، وعلاقة الإنسان بها، وهذا فعل يمارسه كل إنسان راجح العقل، يدرك أن له في حياته وعلاقاته وتأثيراته، بُعداً أخلاقياً واجتماعياً وإنسانياً.

فالإنسان مفطوراً على حب الاستطلاع، هذا الاستطلاع هو الفلسفة، الذي يقوى بقوة العقل وحدته، وسعة آفاقه، ويحمل على طلب معرفة "الحقائق الكبرى" والأساسية في الوجود والحياة.

و لم تنشأ الفلسفة بمعزل عن منجزات الإنسان العقيدية والعلمية والحضارية، ولا يمكننا أنْ نفهم تلك المنجزات إذا لم نتابع الذخيرة الفلسفية للمجتمعات المختلفة، ألم يكن تاريخ الفلسفة -على رأى هيجل- هو تعبيرٌ عن تاريخ العقل والوجود، ومنطقها هو القانون المثلث الذي يحكم تجليات العقل في عالم الطبيعة، فكانت النظم الاجتماعية والفنون، والأديان، والعلوم؟[1]

فالفلسفة، إذن ملتصقة بالحضارة، ومن غير الممكن تصور قيام حضارة أصيلة دون فلسفة بمستواها إلى الحد الذي دفع جون ديوى إلى اعتبارها قوة

---

[1] هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة د/ إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٤م، ص ١٥٩، ١٦١، ٢٢٠.

تاريخية حاسمة تقترن بكل تغير يطرأ على الحضارة، واختلاف الحضارات على هذا الاعتبار، متأتٍ من الاختلافات الفلسفية التي تنشأ بموجبها[1].

وإذا كانت الفلسفة لها هذا التأثير الضخم في حضارات البشرية، فإنّه لا يمكن فصل الفكر الفلسفي عن بيئته الحضارية والتاريخية، والفكر الفلسفي،ماهو إلا حصيلة أفكار البشر خلال التطور التاريخي للإنسانية .

ونشأة الفلسفة-بهذا المعنى- صارت منذ عصور بعيدة مشكلة بين المشكلات التي تدرسها الفلسفة في محاولة للإجابة عن السؤال: أين نشأت؟ أعند اليونان أم في بلاد الشرق القديم؟

وقد انقسم الباحثون حيال هذه المشكلة- أين نشأت الفلسفة- إلى فريقين: الأول : يؤيد النشأة في بلاد اليونان، ويرى أن الفكر الشرقي لم يكن سوى فكر لاهوتي من ألفه إلى يائه!

أما الآخر، فقد رأى أنّ هناك فلسفة شرقية خاصة ترتبط بالدين أحياناً، وتنفصل عنه أحياناً أخرى[2].

ولقد كان أرسطو أول من ردها- الفلسفة- إلى بلاد اليونان، عندما ذهب إلى أنّ طاليس هو مؤسس الفلسفة الطبيعية، أي - على حد شرح فريمان[3] - ما هي الحقيقة وراء الظواهر ؟ أو ما هو المبدأ الأول للأشياء.

وقد أختلف الباحثون كثيراً في قول أرسطو هذا وتخريجه، لذلك نضع النص كاملاً في الكتاب الأول من " ما بعد الطبيعة" يبدأ أرسطو بتوضيح معنى الحكمة أو الفلسفة، وينتهي إلى أنها المعرفة بمبادئ وأسباب معينة[4]، ثم يوضح

---

(1) الدكتور زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، طبعة منقحة، القاهرة ١٩٧١م، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(2) راجع مقدمة الدكتور إمام عبد الفتاح لترجمة كتاب جون كولر "الفكر الشرقي القديم" عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٩، ١٩٩٥م، ص ٩.

(3) Kathleen Freeman: companion to the pre- Socratic philosophers oxford, 1966. P.52

(4) Aristotle: Metaphysics A,I, 981

he Western world No 8 vol., Chicago 1952.

أسباب الأشياء والظواهر، فيردها إلى أربعة أسباب هي الصورية والمادية والفاعلية- سبب التغير والحركة- وأخيراً الغائية، ويقول إنه وضع ذلك في كتاب "الطبيعة"

وأنه من الخير- يستمر أرسطو- أن نستأنس برأي الذين تقحموا البحث في الوجود وفلسفوه قبلنا"[1]

" وبالنسبة للفلاسفة الأولين، فإنَّ معظمهم يعتقد أنَّ المبادئ التي هي من طبيعة المادة هي المبادئ الوحيدة للأشياء، والتي منها تتكون جميع الأشياء، وهي الأول الذي منه جاءت، والأخير الذي تنحل إليه الأشياء، وأنَّ الجوهر باق مع أنه يتغير في أحواله، وهذا ما يقولون إنَّه العنصر أو المبدأ للأشياء، ومع ذلك فإنهم - والحديث مازال لأرسطو- غير متفقين جميعهم على عدد وطبيعة هذه المبادئ، طاليس مؤسس هذا النوع من الفلسفة يقول إنَّ المبدأ هو الماء (ولهذا السبب أعلن أنَّ الأرض تستقر على الماء) ومن المحتمل أنه استمد الفكرة من رؤيته أن الغذاء لجميع الأشياء هو الرطوبة، وأن الحرارة نفسها تتكون من الرطوبة وتبقى حية بها. (وإنَّ هذا الذى تتكون عنه الأشياء هو مبدأ جميع الأشياء) وقد استمد طاليس هذه الفكرة من هذه الحقيقة ومن حقيقة أنَّ بذور جميع الأشياء ذات طبيعة رطبة، وأنَّ الماء هو أصل الطبيعة الرطبة في الأشياء، ويعتقد البعض أنه حتى القدماء الذين عاشوا قبلنا بمدة طويلة قبل جيلنا الحالي، وكانوا أول من كون تصورات عن الآلهة، توجد عندهم فكرة مشابهة عن الطبيعة، لأنهم جعلوا المحيط أباً للخلق، ووضعوا القسم بالآلهة وكأنه القسم بالماء، لأن ما هو أقدم فهو يُحترم، وإن أكثر الأشياء شرفاً هو ما يقسم به بين الأشياء؛ ولسنا متيقنين من احتمال أن يكون هذا الاعتقاد من الطبيعة بدائيا وقديما، ولكن على كل حال يقال: إنَّ طاليس أوضح نفسه حول السبب الأول للأشياء هكذا" [2]

---

(1) **Aristo : Met, Book 103, 983b.**

(2) **Aristo , Ibid., 984a.**

وقد أورد الدكتور كريم متى نص أرسطو هذا موجزاً في كتابه: الفلسفة اليونانية، بغداد، ١٩٧١ ص ٢٧-٢٨.

هذا النص فُهم من قِبَل بعض الباحثين المحدثين بأنه يقول بصراحة، بـــأنّ الفلسفة الطبيعية المقطوعة الصلة بالميثولوجيا، والتي تفسر الظواهر الطبيعة تفسيراً طبيعياً تقوم على ملاحظة الأشياء نفسها، إنما بدأت مع طاليس، وأنّ الفلســفة لم تكن لها قائمة قبل ذلك [1].

على أنّ نص أرسطو السابق يشير إلى أنّ طاليس بقوله بالماء كمبـــدأ أول للأشياء ربما يكون متأثراً بالأساطير القديمة القائلة بأنّ أصل الأشياء هو الماء، كمـا أنّ ذات النص يقترح أن يكون طاليس متأثراً بالأساطير المصريـــة عـــن أصـــل الخليقة[2]

ولابد أن نشير هنا إلى أنه إذا كان أرسطو في " ما بعد الطبيعة" لا يبـــدأ بالشرقيين كأول من تفلسف في الأشياء، بل يذكر فقط رجال الدين المصريـــين بخصوص الرياضيات، ولو أنه يعترف بأنهم وصلوا إلى البحث النظري المجرد لأصل اللذة، وهو مقياس التفلسف عنده، نقول إذا كان أرسطو لا يذكر الشرقيين، بـل يبدأ بطاليس كأول من تفلسف، فإنه في كتابه المسمى "حـــول الفلســفة" On philosophy، يبدأ بالشرقيين وهو يؤرخ للفلسفة، فيذكر آراءهم باحترام[3] .

ويلاحظ بيجر نوعاً من التفسير الثنائي في ذهن أرسطو وهو- أي أرســطو يتكلم عن معنى اللاهوت Theology، فيقارن الفلاسفة اليونان قبـــل ســقراط باللاهوتيين أي هومر[4] وهزيود[5] ويقابل بين كلمة اللاهوتيين، وكلمة فلاســفة

---

(1) Gomperz: Greek Thinkers. Vol.1 London 1906.

(2) Freeman, Op.cit. pp. 52-53.

(3) Werner Jaeger: Aristotle seconded. Oxfored 1968,pp.128-129.

(٤) اختلف الباحثون فى شخصية هوميروس، فيذهب فريق إلى أنها شخصية وهمية، ويذهب آخر إلى أنها شخصية حقيقية، ولد حوالى القرن التاسع إلى العاشر ق.م، ومهما يكن الخلاف فى شخصيته، فإنه لا خلاف بين مؤرخى الأدب فى أن معظم ما اشتملت عليه الملحمات (الالياذه، والأوديسة) ألف قبل السادس ق.م.

راجع عن هوميروس : J. Drintwater: The outline of Literure, London , Vol.1. p.2off .

أيضاً - T.A. Sinclair: A History of Greek political Thought , London, = 1959, p.1off.

1939.Vol.1.p. 28=

طبيعيين أو كسمولوجيين، وبهذا المعنى تبدأ الفلسفة- عند أرسطو - بطاليس، حيث ينتهي اللاهوت بالمفكرين قبله، هذا من جهة ومن جهة ثانية يطلق أرسطو كلمة "لاهوت" بمعنى الفلسفة الأولى، أو ما عرف فيما بعد على يد تلاميذه " ما بعد الطبيعة " أو الميتافيزيقا. ويرى أرسطو أن الفرق بين الفلاسفة الطبيعيين وبين أصحاب " الثيوجينات" (أي أصحاب تفسير أصل الأشياء وتسلسل الآلهة عن طريق أسطوري) هو فرق في الطريقة فقط، كما أنه يتحفظ في إبداء رأيه بالنسبة لمحاولة البعض- وهو يقصد أفلاطون، كما يرى ييجر، - إرجاع قول طاليس بالماء إلى هومر [٢] .

على أن هذا التميز عند أرسطو بين الأثنين، هذا التمييز القائم على الفرق بينهما في طريقة الوصول إلى القول بأن هذا أو ذاك هو أصل الأشياء، بمعنى استبعاد الفلاسفة الطبيعيين للتفسير الخرافي أو التحكمي لأولئك هو الذي دفع باحثي الفلاسفة الطبيعيين للتفسير الخرافي أو التحكمي لأولئك، هو الذي دفع بعض باحثي القرن التاسع عشر تحت تأثير حركة العقلانية إلى إضفاء صفة العلمية المحضة على الفلاسفة الطبيعيين، وقطع أية صلة لهم باللاهوت والميثولوجيا،

والدكتور على عبد الواحد وافى: الأدب اليونانى القديم، القاهرة ١٩٦٠، الباب الثالث، ص ٦٥ وما بعدها،

والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٤ وما بعدها.

ولد فى عام ٨٤٦ ق .م وتوفى عام ٧٧٧ ق.م، وينسب المؤرخون له قصيدتين الأولى : أنساب الآلهة" The Throgony، والثانية "الأعمال والأيام".

راجع : سارتون: تاريخ العلم، القديم فى العصر الذهبى لليونان، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م ص ٢٩٩ فما بعد،

ديورانت : قصة الفلسفة اليونانية، جـ٦، ص ١٨٤،

الدكتور على عبد الواحد وافى : "الأدب اليونانى القديم"، ص ٩٣،

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى:" فجر الفلسفة اليونانية"، ص ٢٦،

12

(2)

1968, pp.4-9.

والتأكيد على الجانب " الطبيعي" لتفسير أقوالهم، وبالتالي اعتبار أن الفلسفة إنما تبدأ مع طاليس، وكذلك العلم النظري[1] .

وقد مال أشياع هذا الرأي تدريجياً باتجاه فكرة " المعجزة اليونانية" و "أصالة الفكر اليوناني" و " الشعاع الخاطف" في بحر من الظلمات، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعني القول بأن اليونانيين غير مدنيين في " علومهم" و" فنونهم" و " فلسفتهم" بل " وأديانهم" لشيء شرقي، وإن كان هناك أثر ما في " الفنون " و"الفلك" فإن القفزة التي قدمها اليونانيون في هذا المجال تلغي هذا الأثر وتلاشيه.

وينتهي أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأي، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليوناني الخالص، ولهذا الرأي أنصار كثر نذكر منهم زيلر، الكسندر، ويرنيت، وسيأتي تفصيل لآرائهم في هذا المجال .

وقد مضى حين من الدهر كان الناس لا يشكون في أن الفلسفة نشأت أول ما نشأت ببلاد اليونان، أو بعبارة أدق بأيونية المستعمرة اليونانية التي أسسها مهاجرو اليونان الأولون بأسيا الصغرى، واستمر هذا الرأي ينمو ويشتد ويستقر في النفوس كحقيقة لأريب فيها، تساعده عوامل مختلفة منها استعلاء الغربي واعتقاده نفسه خير الناس، واستخذاء الشرقي- أحياناً- وظنه السوء بنفسه، وذلك بأن للقوة أثرها غير المنكور في نفس القوى والضعيف على حدٍ سواء.

وهذا الرأي على غلوه- أو على خطئه- له أنصار كثر في الغرب، ومن العجب أن يكون له أنصار كثر في الشرق أيضاً.

وفي المقابل، يرى بعض المؤرخين القدامى مثل ديوجينس اللايرتي Diogenes Laertius (القرن الثاني الميلادي) أن أول فلسفة إنما قامت عند الشرقيين والمصرين [2] وهذا هو رأى مؤرخين وكتاب آخرين يهود ومسيحيين

---

[1] الدكتور حسام محيي الدين الألوسي:بواكير الفلسفة قبل طاليس، أو من الميتولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة، ١٤٦ هـ - ١٩٨٦، ص ٧-٨.

[2] الدكتور عبد الرحمن بدوى: ربيع الفكر اليونانى، ١٩٥٨م القاهرة ص ١٠، الدكتور كرم متى: الفلسفة اليونانية، بغداد، ١٩٧١م، ص ٧.

مثل فيلون وكلمنت الاسكندرى [1] ويمثل هذا الرأي من المحدثين والمعاصرين كثرة انتصرت لأصالة الفكر الشرقي القديم، نذكر منها سارتون، هوبهوز، أورسيل، توملين، كولر، ومارتن برنال.

وهكذا ظهر رأيان متعارضان، إلى حدما، انعقد السيادة للرأي الأول طوال العصور القديمة، والعصور الوسيطة، واستمر حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، من أرسطو في القرن الرابع ق.م حتى برتراند رسل في القرن الحالي، ثم ظهرت بحوث جديدة كشفت عن حضارات مزدهرة، وأفكار جديدة تقترب من ميتافيزيقا الفكر الغربي، مما غير الفكرة القديمة التي غلبت الفكر الديني في حضارات الشرق.

ونعرض الآن بعض التفضيل لهذين الرأيين المتعارضين حول نشأة الفلسفة بين الشرق والغرب.

ثانيا : "منكروا" الأصالة الشرقية.

باحثون كثيرون محدثون تبعوا قول أرسطو، أن الفلسفة ترجع إلى اليونان، وأول فلاسفتهم طاليس، من بينهم، زيلر، الكسندر، وبرنيت.

١- زيلر (١٨١٤ -١٩٠٨):

يرى زيلر أن الفلسفة الإغريقية ابتكاره إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأننا لا نجد عند الأمم التي قبلهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، نعم يوجد شئ يمكن أن يسمى فلسفة تساما عن الصينيين والهنود، ولكن اللغة المستخدمة آنذاك لم تكن ملائمة للتعبير الفلسفي، كما أن فلسفة

---

[1] فيلون: فيلسوف يهودى (٢٥ قبل م- ٤٠م) نشأ فى الأسكندرية، وكذلك كليمنت (١٥٥م -٢٢٠م)، وسيردد أقوال فيلون آخرون نشأ وافى القرن الثانى الميلادى منهم جوستين وأثيناغوراس، أنظر:

- **Gilson: Hisrtory of Cristian philsosophy in the Middle Ages. New york, 1955, pp. 29, 555. Also:**
- **F . copleston: A Histroy of philosophy. (Burns, oates, 1950) vol.**

وأيضاً : الدكتور حسام محيى الدين الألوسى مقدمة فى الفلسفة المسيحية وبواكيرها الأولى، مجلة جامعة الكويت، عدد (٢) ١٩٧٣م.

لاتسو Laotes هي صوفية أكثر مما هي فلسفة، ومع ظهور نظم فلسفية هندية فإنها لم تنفصل عن الدين أبداً.

ولكن فقط مع اليونان استبدلت التصورات الخرافية للعالم بنظام عقلي من الأفكار يستند على الفكر المستقل القادر على تفسير الحقيقة بشكل طبيعي [1] وقارئ زيلر لا يفوته أن يلاحظ أنه يتحدث بلغة جد قريبة من فكرة لا التفوق القائم على الجنس" فهو يتحدث عن الشعب اليوناني بأنه وحده الذي استطاع أن يسبر أغوار الطبيعة والمجتمع ونفسه بحياد العلماء، ويرى إن مما ساعد على هذا خواص يمتاز بها العقل اليوناني مثل الإحساس القوى ا بالحقيقة " والقدرة الفائقة على التجريد [2] ؛ ومكنهم هذا من تأسيس الفلسفة وقضاياها، والفلسفة عند اليونان لا تعنى تفسيرا نظريا عقليا للعالم، بل كذلك موقفا عمليا محددا من الحياة [3] على أن زيلر لا يستبعد الأثر الشرقي، فهو واضح من خلال الأورفية [4]

---

(1) **Eduard zeller: Out lin of the history of Greet philosphy, London, 1963, p.2**

(٢) زيلر، المصدر نفسه، ص٣ .

(٣) زيلر، المصدر نفسه، ص٣ – ٤.

(٤) الأورفية : نحلة واسعة الانتشار والتأثير، تتصل بالإله ديونيوس الذى كان فى الأصل من آلهة تراقية، وهو إله النبيذ والجعة أو الخمزة فيما بعد، واصبح عند الأورفية إله التضحية أى ابن الله الذى مات لينجى البشر، والأورفية نسبة إلى أورفيوس **orpheus**، الذى يرجع أنه رجل حقيقى، وإن كانت جل معرفتنا عنه تمت إلى الأساطير، وقد جاء من تراقية أيضا، ولكن المرجح أنه جاء – أو على الأقل حركته – من كريت، ويرجح أيضا أن أصول هذه الحركة أو النملة تسربت من مصر إلى كريت وعنها إلى الأورفية.

راجع :

- **Burnet : Early Greek philosophy, p.8**
- **E. Zeller. outlines of the history of Greek philosoply up**
- **32- 33**

والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥م، ص٢٧، ديورانت : " قصة الفلسفة اليونانية"، والجزء السادس، ص ٣٣٨، ٣٤٥.

= **K. reewan : acomanion to the pre-socratic philosophers, oxford. 1966.**

= ويرى برنيت أن معظم الأدب الأورفى يرجع لتاريخ متأخر، وأصله غير معروف وغير موثوق به، وهو مشابه للأديان الهندية القديمة، وإن كان يصعب القول بوجود تأثيرهندى على الإغريق فى هذا

وهذا سبَّب ثنائية واضحة في الفكر اليوناني منذ القرن السادس وبعده، ومع أنه يستبعد استمداد الفلسفة الطبيعية من الأورفية والفكر الصوفي، إلا أنه يرى وجود خط مواز لها يتمثل في بعض الفلاسفة أو بعض أفكارهم.

فعند كلامه عن الديانة الأورفية يقول :

إن اللاهوت الأورفي رغم ما فيه من عناصر صوفية تميل إلى نوع من الوحدة بين الله والكون pantheism، فإنه لم يصل إلى الخطوة النهائية في هذا الصدد فقد حاول أن يرى العالم وحدة يخضع لقانون ثابت ولكنه لم ينجح في حل مشكلة التضاد بين العقل والمادة، الله والعالم، الروح والجسم.

واللاهوت الأورفي مضاد لوجهة نظر الإغريقي عن الحياة والتي بموجبها ما هو حقيقي هو الإنسان المجسد المادي، بينما الروح أو النفس مجرد نوع من الظل أو الصورة العديمة القوة؛ أما في الفلسفة الأورفية فعلى الضد من ذلك أن ما هو باق ونمير زائل هو النفس، وأما الجسم فزائل، وحقير، وعند الإغريق، الحياة على الأرض تحت طلعة الشمس هي الحياة الحقة، وبقية العوالم هي مجرد تقليد ومحاكاة كئيبة لها، بينما عند الأورفية هذه الحياة نوع من الجحيم وسجن وعقاب، وأنه فقط في العالم الأخر بعد خلاص النفس من سجن الجسم يتحقق الوجود الإلهي الحقيقي الذي ينتظرنا.

الجانب (Early Greek philosophy, p.82)، ولكن زيلر (outlines, p.33) يرى أن الأورفية متأثرة بالرومانية والفيدا الهندية.

وتقوم التعاليم الأورفية على فكرة أن في الإنسان ثنائية، والجسم ليس سوى قبر وسجن للنفس، والإنسان مربوط إلى الجسد، ولن ينجينا من الدنيا التي هي شرٌ، ومن جسدنا إلاّ التطهير.

ويرى رسل أن من العناصر الخيرة عند الأورفية تأكيدها على الجانب الصوفي الذي يرمي إلى الحصول على المعرفة بالذوق وليس بالحس وبالعقل.

والنظرية السائدة عند معظم الباحثين، ومازالت ، أن الآورفين يمثلون خطاً شرقياً غريباً على الفكر اليوناني، وأنهم أثروا في بعض الفلاسفة اليونان مثل الفيثاغورية وهرقليطس وانكسيماندر واكسنوفان، بعد ذلك في المثالية اليونانية في الفلسفة بكل صورها، في سقراط وأفلاطون، وحتى أرسطو، وفي كل الثنائيات المثالية في الفلسفة إلى الوقت الحاضر.

إن هذه المضادة الكاملة للروح اليونانية الأصلية عن الحياة، وما نتج عنها من تغير في القيم خصوصا إحتقار الأورفية للجسد، مع ما صاحب هذا من زهد عملي، غريب تماما عن طبيعة الإغريق، وهو يشير إلى اصل شرقي غير إغريقي، وفى هذا الخط الصوفي وجد البعض ما يشبع بعض الحاجات الملحة في وقت ظهور هذه النحلة، وهكذا وجد الإغريقي ذو المشاعر القوية نفسه يتجه إلى الدين ويجد فيه إشباعا، ومع ذلك ظلت الثنائية التي تقول بها هذه النحلة الصوفية والتى تقسم طبيعة الإنسان إلى عنصرين متضادين، أثراً غريبا في الدم الإغريقي.

إن الإغريق في القرن السادس ق .م، والذين لم يعودوا مكتفين بدينهم التقليدي، وجدوا أمامهم مجالين : مجال التفكير والاستقصاء العقلي، والذي تبعه الأيونيون الطبيعيون، والمجال الصوفي الدينى، الذي وضحت طريقة الأورفية؛ وهذان الخطان لم يكونا منفصلين تمام الانفصال، وإنما متداخلين، لأن الدين والفلسفة لهما هدف واحد عندما يتعاملان مع المشاكل الكبرى.

ويبدو أن كل تطور الفلسفة الإغريقية، ما هو إلا استمرار التضاد والجدلية، وفى وجوه مهمة، محاولة التوفيق بين الأحادية الإغريقية المحلية والثنائية الشرقية، أو بكلمة واحدة، بين " العقلانية " و " الصوفية "، وفى وقت يظهران منفصلين، وفى وقت أخر يتحدان ليكون أفكار جديدة مثمرة، إلى أن استحالت الفلسفة إلى تصوف في صورة الأفلاطونية المحدثة بعد إجهاد الفكر العقلي.

ويرى زيلر أن أصحاب هذا الاتجاه الأورفى يمثلون فجر الفلسفة والدين، وطلائع الفلسفة الإغريقية، أو الممهدون لها، والذين أسماهم أرسطو بـ (اللاهوتيين) theologies، ويعتبرها زيلر المرحلة البدائية للفلسفة اليونانية [1]

وهكذا يقول زيلر - نجد توضيحا لظهور الفلسفة اليونانية، ولكن هذا الظهور يعود بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على التخيل، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مثمر، وكان إلى جانب عاطفتهم وإخلاصهم شعور بالحقيقة والوضوح والنظام والاعتدال والخضوع للتعاون، سواء في السياسة أو الفن، والأغارقة أنفسهم يربطون هذا كله بمناخهم المشمس رغم عدم غنى أرضهم، كما أن الموقع الجغرافي والتجاري، ساعدهم على الاستفادة من

---

(1) زيلر Outlines , pp . 15 - 19

سواهم، ولكن ما استعاروه، استحال، وطور بما يتفق وطريقتهم الخاصة والفلسفة هي من خلقهم الخاص، حالما ساعدهم التقدم البشرى قبلهم على عبور مراحل الطفولة والخرافة.

وعلي كل حال فإن الثنائية التي تفصل المادة عن العقل، والجسم عن النفس، والله عن العالم، احتلت بنجاح مكانا لها في الفلسفة اليونانية حتى في هذه الفترة المبكرة، عندما كست الفيثاغورية، الصوفية الأورفية بغطاء العلم، وأصبح لهذه المدرسة، بواسطة فيثاغوراس، ومن خلال تأثيرها في أبناذوقليس وأفلاطون، أكبر الأهمية للفلسفة منذ ذلك الوقت فيما بعد، الأمر الذي يؤكد وجود خطين : ديني صوفي، وأخر علمي طبيعي، عند المفكرين اليونان ابتداء من طاليس وأن الفلسفة اليونانية فيها الشيء الكثير من التفسيرات الميثولوجية واللاهوتية، موضوعة بألفاظ فلسفية، وسياق منظم [1].

٢- ونجد شبيها بأقوال زيلر عند الكسندر، يقول :

" إذا اعتبرنا أن الفلسفة هي البحث المنظم عن ما هية الأشياء، فإن مكانها الأصلي هويلاد الإغريق، وبقدر ما نعرف فإن الهنود هم الشعب الوحيد مع الإغريق الذين كان عندهم ما يمكن أن يعتبر فلسفة، ولكن لا يوجد باحث الآن يقترح أن الإغريق أخذوا فلسفتهم عن الهنود، بل العكس صحيح، أن الصوفية في الأوبانيشاد، والبوذية، هندية أصلية، وأنها أثرت في الفلسفة، ولكنها نفسها ليست فلسفة بالمعنى الصحيح للكلمة " [2] ويرفض الكسندر اقتراح أن يكون الأغارقة متأثرين بالعلم أو الدين الشرقي، فان علوم المصريين والبابليين عملية

---

(١) ويكفى ان نضرب أمثلة على ذلك : صيوية المادية وامتلاء العالم بالألهة عند طاليس، فكرة المكان المخصوص للأشياء أو العناصر عند انكسيماندر، نصوص عن الألهة عند هيرقليطس، توحيد اكسنوفان، مثاليات فيثاغورس، ألهة أبناذوقليس، ومبدأ المحبة والكراهية، العقل عن انكساجوراس، ولا حاجة بعد ذلك للحديث عن سقراط أو أفلاطون أو أرسطو أو الرواقية أو أفلوطين فأمر ميتافيزيقاهم بل وميثولوجيتهم مركز الدائرة فى فلسفتهم الميتافيزيقية.

(راجع تفصيلا لذلك، الدكتور حسام محيى الدين الألوس، بواكير الفلسفة قبل طاليس، الفصلين الثالث والرابع.)

(2) A. B. D. Alexauder : Ashort history of philosophy. 3 rd Ed . Glasgow, 1934, p. 7 -8

غرضا وطريقة، أما دينهم، فصحيح أنه - وكما يقول هيرودوت - جاءت ديانة ديونيسوس والتناسخ من مصر، إلا أن أثر هذه في الفلسفة قليل، وهو يعزو هذه " الأصالة اليونانية " إلى ميزات خاصة بالشعب الإغريقي نابعة من ظروفهم الجغرافية ومجتمعهم المعقد، وهذه الخصائص هي حبهم للاستطلاع ومقدرتهم على التعميم، وحبهم الواسع والمتلون للحياة، وإحساسهم بالجمال .

مع ذلك فإن الكسندر يرى أن الفلسفة لم تنفصل عن الخرافة والدين من أول مراحلها، بل ظل الفلاسفة يعبرون عن فلسفتهم بأساليب بلاغية شعرية كسابقيهم، كما أن أفكار الفلسفة ظلت مرتبطة بالعقيدة الدينية التي منها نبعت، فلم تلغ الفلسفة الآلهة بل فسرت طبيعتهم وأعمالهم.

٣- ونأتي لـ (برنيت) أحد أكبر من يدافع عن " الأصالة المطلقة " للعلم والفكر والدين اليوناني .

يذهب (برنيت) إلى أن آراء البابليين والمصريين في تفسير خلق العالم من المادة، آراء أسطورية، وأن الشيء الذي اعتبر طاليس- والفلاسفة الطبيعيون من بعده - فلاسفة، ليس قوله بأن أصل الأشياء هو الماء، بل إثارته للسؤال نفسه: ما هو أصل الأشياء ؟ كيف نرجع الأشياء المتكثرة إلى شيء واحد ؟ أي دراسة الظواهر الطبيعية دراسة طبيعية، وعلى أساس عقلي طبيعي [١] وأنه إذا كان هناك إقرار بوجود علوم عند البابليين والمصريين [٢]، حيث يرى وصول البابليين والمصريين إلى معرفة نظرية في الرياضيات (هندسة وحساباً)، إلاّ أنها لم تصل إلى طور التنظير أو التحديد العقلي، بل هي عملية بحتة، بينما هي نظرية وعلم بحت منظر ومجرد عند اليونان [٣].

فالذين يعتمدون على وجود هذه العلوم عند الشرقيين، يقعون في هذا الخطأ لأنهم لا يلاحظون هذا الفرق، ثم أنهم لا يميزون بين الفلسفة وهذه العلوم.

---

(1) J. Burnet : Greek philosophy, New Youk, 1988,p.16

(٢) انظر تفاصيل عن هذا في :
- Farrington : Science in Intiquity .1936 p.q
- G.E.R. Lioyd Greek science. London, 1970, ch.1.p2

(3) وسارتون: تاريخ العلم: العلم القديم في العصر الذهبي لليونان، الترجمة العربية، لفيف من العلماء - دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣.
1963, p.1-10
وهذا هو رأى برتراندرسل في كتابه
1961, p.21

وعلى هذا يرفض برنيت أخذ اليونان أي عنصر فلسفي من البـــابليين أو المصريين أو الهنود، ويعمم ذلك إلى الرياضيات النظرية والفلك، فلا يوجـــد- في رأيه- كاتبٌ من كتاب الفترة التي ازدهرت فيها الفلسفة اليونانية يعـــترف أنهـــا أخذت شيئاً من الشرق[1].

كما أن أوراق البردي المسماة أوراق رايند، في المتحف البريطاني تظهر- في رأى برنيت- أن رياضيات المصريين عملية بحتة، يتعلق الحساب منها بقياســـات القمح والفاكهة، وأنها تعالج مشاكل عملية مثل تقسيم عدد من المكـــاييل علـــى عدد معطى من الأشخاص، أو تقسيم الحاصل على عدد من الفلاحين، أو كـــم هو الأجر لمجموعة من العاملين لعمل معين، وهذا يتطابق تماما مع الوصف الـــذي يعطيه أفلاطون للحساب المصري في كتاب " القوانين" حيث يخبرنا أن الأطفـــال يعلمون مع تعلمهم للحروف، كيف يحلون مسائل حول تقسيم التفاح على عـــدد أكبر أو أصغر من الأشخاص، وما إلى ذلك [2]، ولكن لا يوجد في حسابهم شيء مما يسميه الإغريق بالدراسة العلمية للأعداد [3] ؛ والشيء نفســـه يقـــال عـــن الهندسة، حيث يخبرنا هيرودوت أنها ظهرت عند المصريين من الحاجـــة لقيـــاس الأراضي الجديدة، وهذا يتفق مع ما تظهره أوراق رايند عن هندســـتهم، علـــى

---

(1) ولكن يمكن أن نقارن قول برنيت هذا بنص عن محاورة فيـــدروس "لأفلاطـــون، ورغـــن أن هـــذا أسطورى فهو شهادة على وجود هذه العلوم، بل والحكمة فى مصر، والنص بحسب نقل سارتون له ص ٢٥٢-٢٥٣)، كما يلى: " سمعت- والمتكلم هنا سقراط- أنه كان فى نواكريتس مـــن أرض مصر إله من الآلهة القدماء فى تلك البلاد، وهو الذى كان طائره المقدس يسمى أبيس واسم ذلـــك الإله نفسه توت، وهو الذى اخترع الأعداد والحساب والهندسة والفلك والرسم واللعب بفصـــوص النرد، وأهم من ذلك كله أنه الذى اخترع رموز المتابة" ويذكر سقراط أن الإله توت قـــال لملـــك مصر: " إن هذا الاختراع- أى الكتابة - أيها الملك سيؤتى المصريين الحكمة فوق مالهم، وسيجعل ذاكرتهم خيراً مما هلى عليه، لأن هذا الذى اخترعه أكسير الذاكرة والحكمة (Plato, phaidros-74c.

(2) Plato,Laws , 891, p4.

(3) J.Barnet, Eanly Greek, p.19.

عكس أرسطو الذي يعزو نشوءها إلى دافع كمالي، أي بدافع اللذة أو المتعة التي كانت تحس بها طبيعة رجال الدين المصريين [1].

ولنا ملاحظات على فهم برنيت لرأى كلٍ من أفلاطون وأرسطو في العلم المصري:

الأولى: أن أفلاطون لا يعتبر أن مستوى علوم الرياضيات المصرية، هو مستوى ما يعلم للأطفال، كما استنتج برنيت بدون حق، بل هو يتحدث عن مستوى الرياضيات التي تعطى للأطفال أول تعلمهم عن طريق اللعب والتسلية، فيقول الغريب الأثيني- أحد المتحاورون في محاورة القوانين-:

" كل المواطنين الأحرار يجب أن يتعلموا الكثير عن هذه الفروع من المعرفة، كما يتعلمها كل طفل في مصر، عندما يتعلم حروف الهجاء، وفى البلد - مصر ابتدعت الألعاب الحسابية التي يستخدمها الأطفال ويتعلمونها كنوع من المتعة والتسلية، فعليهم- والكلام عن الأطفال- أن يقسموا التفاح والزهور مستخدمين نفس العدد مرة مع عدد أكبر من الأفراد، ومرة مع عدد أقل":

ويستمر الغريب الأثيني متحدثاً عن لعب مسلية أخرى للأطفال، وبهذا يمكن استخدام الحساب للتسلية وللفائدة العامة بحيث يمكن أن يتعرفوا على تنظيمات وحركات الجيوش والحاجات الأخرى، ونفس الشيء فيما يخص قياس الأشياء ذات الطول والعرض والعمق؛ " وبهذا يحررونا من الجهل الطبيعي بهذه الأشياء، هذا الجهل الذي هو مشين جداً" [2]

والكلام كله هنا على سبيل المدح للمصريين، والدليل على ذلك أن الحوار يستمر فيسأل كلنياس، وهو محاور آخر:

" ما هو نوع الجهل الذي يعنيه ؟ فيجيب الغريب : لقد سمعت أنت بدهشة بجهلنا في هذه الأشياء، ونحن كما يظهر أشبه ما نكون بالخنازير منا بالبشر، وأنني لجد خجل ليس من نفسي فقط، بل ومن الهلينيين كلهم" ويستمر سؤال كلنياس :

---

(1) **Aristo. Met. A,L .981, p23.**

(2) **Plato, Laws, Ibid, 819-819d.**

" عن ماذا ؟ ويجيب الغريب الأثيني مفصلا مبينا التناقض في أقوال الأثينيين عن نسبة المقاييس لبعضها، وعدم وجود مقياس مطلق، وبالتالي ضرورة قيام الدولة بتدريس هذه الفروع ". [1]

وفي هذا، ما يدل صراحة على اشتغال المصريين بالعلوم، لدرجة أنهم يعلمون أطفالهم الحساب والهندسة، مع تعلمهم للألغباء، وهو - أفلاطون - يمتدح هذا، ويوصي بأن يكون جزء من واجب الدولة، ويعيب على الأيونيين جلهلهم بهذه الأمور إلى حد انه يخجل من نفسه ومنهم.

والملاحظة الثانية : أننا إذا رجعنا إلى أرسطو متأملين ما يقوله في هذا الشأن نجده يقدم تقديرا عاليا للعلم المصري أكثر مما تقدمه الكلمات المائعة التي يشير إليها برنيت كملخص لرأى أرسطو في المصريين ؛ ففي أول الكتلب الأول من كتابه " ما بعد الطبيعة " يتكلم أرسطو عن معنى الحكمة أو الفلسفة، ويرى أن التجربة والخبرة سبب كل فن أو صناعة أو علم، والفن يبدأ عندما تعمم الخبرة الفردية، فإذا ما أفاد دواء مريضا بالتجربة فهذه خبرة، ولكن إذا وصل الإنسان إلى الحكم بأن هذا الدواء نافع لكل إنسان يصاب بهذا المرض فهذا فن، ويرى أن متعلم الصناعة أو الفن الذي يستطيع أن يعلمها للغير هو أرفع ممن بزوالها بدون أن يفهمها نظريا أو يستطيع أن يعلمها، كما يرى أنه في بداية كل اختراع أو فن، فإن المخترع هو أحكم من الإنسان العادي، ولذلك يعجب به حتى ولو كان هذا الاختراع لأغراض عملية، ويزوال مزاولة غير واعية، ولكن عندما أصبحت بعض الاختراعات لا ترمي لأغراض الحياة، بل للخلق أو الإبداع، اعتبر الأخرين، أحكم من الأوليين، لأن هدف فروع المعرفة عند أولئك ليست للمنفعة، وهنا عندما توطدت مثل هذه الاختراعات اكتشفت العلوم التي لا تهدف لأغراض الحياة، بل للذة، واكتشفت أولا في الأماكن التي كان فيها الرجال يهدفون إلى المتعة أول الأمر " وهذا هو السبب في وجود فنون الرياضيات في مصر، لأن طبقة رجال الدين كانوا يتعاملون معها من أجل المتعة واللذة " وينتهي أرسطو إلى القول :

---

[1] **Plato, Laws, Ibid, 819-819d.**

" كل الناس يعتقدون أن ما يسمى بالحكمة Wisdom هى مـــا تعـــالج الأسباب والمبادئ الأول للأشياء، ولذلك، ووفقا لما سبق قوله، فإنه ينظـــر إلى أن صاحب الخبرة أحكم من الحاصل على المعرفة الحسية فقط وأيا تكن، وأن الفنـــان أحكم من رجل الخبرة، وأن رئيس العمل أحكم من العـــامل الميكـــانيكى، وأن النوع النظرى فى المعرفة أقرب إلى طبيعة الحكمة من النوع الإنتاجي (العملـــى) فمن الواضح إذن أن الحكمة هى المعرفة بمبادئ وأسباب معينة " [١]

ومن الواضح أن أرسطو يقر هنا أن علوم المصريين، هى من النوع النظرى - الذى - لا العملى الإنتاجي، ولذلك فهى أقرب إلى طبيعة الفلسفة.

هذه هى النصوص عند أفلاطون وأرسطو، وهذه هى الصورة التي تعكسها عن " علوم " المصريين، فأين هذه الصورة مما يريد برنيت أن يوهمنا أن أفلاطـــون وأرسطو يرسمانها؟!

ونتابع رأى برنيت حول "الأصالة والمعجزة اليونانية " فبالنســـبة للفلـــك، يرى أن اليونانيين ربما أخذوا عناصر الفلك من البابليين، ولكن الفلـــك البـــابلى موجه لأغراض تتعلق بالتنجيم مثل قراءة الطالع وما أشبه، وليس الأمر كذلـــك عند اليونان، ومن جهة أخرى أن أهم تطورات تنسب للفلك القديم هى من إنتاج العبقرية اليونانية [٢]

ويلخص برنيت أقواله السابقة بالأسطر التالية :

" الخلاصة أن الإغريق لم يستمدوا فلسفتهم أو علمهم من الشرق، وعلـى كل حال هم أخذوا من مصر القواعد فى المساحة، والـــتى بعـــد أن جردوهـــا وعمموها نشأ علم الهندسة، كما أخذوا من البابليين أن حركة الأجرام الســـماوية دائرية، وهذه الجزئية العلمية كانت مهمة في قيام العلم لأنها عنيـــت للإغريـــق مشاكل وأسئلة أخري، لم تدر قط بخلد بابلى " [٣]

---

(1) **Arist : Meta , L . 981FF.**

(٢) راجع برنيت - **Early Greek phiosophy, p.23**

(3) **Burnet : Early , p. 24**

ولابد أننا قد ضقنا ذرعا بهذه اللغة " التفاخرية " التي تنضح بفكرة الاستعلاء، وتتطلع إلى مزيد من الأدلة المفحمة لإزالة هذه الأوهام التي طالما رددها دعاة هذا التفوق، وأصحاب هذه اللغة التي تؤكد تعصبهم العنصري.

ومن العجب أن يكون لهذه " اللغة " أنصار كثر في الشرق، فنحن واجدون عن بعض مؤرخينا القدامى اعترافا بامتياز اليونان عن غيرهم في الفلسفة، بعد إشارة لذلك عن ابن صاعد [1] ويقول الشهرستاني :

" فنحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم واليونانيين على الترتيب الذي نقل في كتبهم، ونعقب ذلك بذكر سائر الحمكاء إن شاء الله تعالى، فإن الأصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم وغيرهم كالعيال عليهم"[2]

ويقدم البيروني مناقشة طويلة تتلخص في أن الهنود القدامى فيهم الخاص والعام واليونانيين مثلهم في هذا، ولكن الآخرين امتازوا عن الهنود بالفلاسفة [3] ومعظم مؤرخينا يقولون أن طاليس - وبعضهم فيثاغورس - هو أول من بدء الفلسفة، يقول ابن النديم :

" قال لي أبو الخير بن الخمار بحضرة أبي القاسم عيس بن علي، وقد سأله عن أول من تكلم في الفلسفة فقال : زعم فورفوريوس الصوري في كتابه " التاريخ " وهو سرياني أن أول الفلاسفة السبعة ثاليس بن مالس الأمليس، وقد نقل من هذا الكتاب مقالتين إلى العربي، فقال أبو القاسم كذا هو وما أنكره، وقال آخرون أن أول من تكلم في الفلسفة فيثاغورس " [4]

---

(1) طبقات الأمم، نشرلويس شيخو - بيروت ١٩١٢ ص٢٣ .

(2) الشهرستاني : الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة ١٩٦٨ م، جـ١، ص ١١٨ .

(3) البيروني : " في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " حيدر أباد ١٩٥٨ م، ص ١٧ -١٩ ؛ ٢١ -٢٣، ٦٧، ١٨٠ - ١٨٣ .

(4) ابن النديم : الفهرست، تحقيق فلوجل، مطبقة الخياط، بيروت ١٩٦٤ م، المقالة السابقة في أخبار الفلاسفة ص٢٤٥ .

ومثله عند المقدس نقلا عن فلوطرخس في كتاب الأخير " مايرضاه الفلاسفة من الآراء الطبيعية " :

" ... وحكى عن فيثاغورس من أهل شاميا وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم، وطاليس أول من أبتدأ الفلسفة " [1]

والغريب في هذه الكتب أنها تعزو للفلاسفة الطبيعيين أراء ناضجة، وموجدة في اللاهوت، وأقوالا في صفات الله وتنزهه عن المادة ... الخ [2]، في نفس الوقت الذى تعزو لهم ما يعزى لهم عادة من أراء طبيعية كقولهم بالماء أو الهواء أو غير ذلك مما هو معروف، ويمكن أن يفسر هذا على أساس أن الدوائر المسيحية والأفلوطينية قبل مجيء الإسلام صورتهم هكذا ؛ كما أن الكتب القديمة تنسب لهم أراء في اللاهوت - كما لاحظ بيجر - أن أوغسطين والمصادر الأخرى تجعل الفلاسفة الطبيعيين اليونان لا هوتيين وطبيعيين في أن واحد [3] .

ثالثا : "مؤيدوا " الأصالة الشرقية .

أرجع ديوجانس اللايرتي نشأة الفلسفة إلى الشرق، في قوله : إن الاجتماع منعقد على وجود علم وتقدم لدى الشرق قبل اليونان، كما أن الشرقيين سبقوا اليونان في مجال التفكير النظرى الديني [4]" وقد مال باحثون غربيون كثيرون إلى رأى ديوجانس هذا، نذكر منهم سارتون، هوبهوز، أورسيل، توملين، كولر، ومارتن برنال.

١-سارتون :

عالم طبيعي ومؤرخ للعلم في أن واحد، ويمتاز عن برنيت وأمثاله بمسحة إنسانية، وأفق عالمي يبعده عن التعصب العنصرى، أو ما شابه اللهم إلا التعصب لما يراه حقا وليس هذا تعصبا، وقد قرنه بالدليل في غير ما إسراف، كما يمتاز

---

[1] المقدسي : البدء والتاريخ، تحقيق كليمنت هوارد، باريس ١٨٩٩، جـ١، ص٣٦

[2] الشهرستاني في الملل جـ١، كلامه عن طاليس ومن بعده، وكذلك ابن صاعد عند كلامه عن أمة اليونان، ومثله في سائر الكتب الاخري مثل القفطي وابن أبي أصيبعة .

(3)

oxford 1988

[4] الدكتور توفيق الطويل : أسس الفلسفة، طبقة خامسة، ١٩٦٧ م، القاهرة ص٣٦ -٣٨

سارتون شأنه شأن ديورانت بأخذه بنظر الاعتبار أهم ما قدمه الإنسان حتى في عصوره البدائية الأولى، إلى أن وصلت أية حضارة بعد ذلك إلى ما وصلته، كما يمتاز بمراعاته لأهمية الأساطير كبداية وجذور لكثير من أفكارنا وعلومنا، واليك بعض من آرائه حول موضوعنا.

في مقدمة كتابه [1] يؤكد أن من السذاجة القول ببدء العلم في اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقي والإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم القديم سبب أفسد فهم هذا العلم، يقول :

" ... ومما افسد فهم العلم القديم كثيرا من الأحيان، ظاهرتان من الإهمال الذي لا يمكن التسامح فيه، والظاهرة الأولى تتعلق بإهمال العلم الشرقي فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق ؛ فإن " المعجزة اليونانية " سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر بلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم، والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعا، والظاهرة الثانية، إهمال الإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم، لا الشرقي فحسب بل اليوناني ذاته كذلك، وكفانا سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني مستطاعاً بدونها، ولكن بعض المؤرخين أضافوا إلى هذا السوء سوءاً بما أخفوا مما لا حصر له من خرافات يونانية عاقت هذا التقدم، وكان من الجائز أن تقضي عليه، الواقع أن العلم اليوناني انتصار للمذهب العقلي، وهو انتصار يبدو أكبر.

– لا أصفر – حين ينكشف لنا أنه تم رغم ما اعتقده الإغريق من معتقدات غير عقلية، بل هو انتصار لقوة ضد قوة غير العقل، وإذن فنحن في حاجة إلى بعض المعرفة للخرافات الإغريقية، لا من أجل الفهم الصحيح لذلك الانتصار فحسب، بل لتبرير ما وقع أحيانا من ألوان الإخفاق، ومنها الشاطحات الافلاطونية على سبيل المثال، والخلاصة أنه إذا كتب تاريخ العلم القديم بغير إمداد القارئ بمعرفة كافية بهاتين الطائفتين من الحقائق، أي العلم الشرقي من جهة والخرافة اليونانية من جهة أخرى، جاء هذا التاريخ، لا ناقصا فحسب، بل مزيفا مدخولاً كذلك " [2]

---

[1] تاريخ العلم : الجزء الأول " العلم القديم في العصر الذهبي لليونان " ترجمة الى العربية لفيف من المعنيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ م.

[2] سارتون، ص٢٠-٢١ .

ويطلق سارتون على تقدم اليونان الرائع فى ثلاثة قرون " معجـــزة " تثـــير الإعجاب والحيرة، ولو أنه يؤكد مرارا إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هـــي زهرة لسلسة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهى - وكذلك الشـــعر الهوميرى - نهاية لا بداية [1]

وينافس (سارتون) اشتراط " التجريد" ليكون العلم علما، ويذهـــب إلى أنه لا حدود للتجريد، ولا أوصاف معينة محددة له حتى نقول هنا بدأ، وإنه منـــذ اخترع أول إنسان أو أناس العدد واللغة كان هناك تجريد !

فالعلم بدأ حينما - وحيثما - عمد الناس إلى حل عديد مـــن معضـــلات الحياة، صحيح إن هذه المحاولات الأولى لم تكن إلا وسائل لتحقيق أغراض وقتية، ولكنها كانت كافية لبدء العلم، وعلى توالى الأيام خضعـــت هـــذه الوســـائل لعمليات الموازنة والتقيم والتبرير والتبسيط والترابط والتكامل، وهكذا أخـــذت مادة العلم تنشأ فى بطء، وهذه البدايات تافهة مضطربة، غير أن هذا لا يعيبها[2]

وقد يقال إننا لا نستطيع أن نتكلم إطلاقا عن " العلم " ما دمنا لم نصـــل بعد إلى درجة من التجريد، ولكن الذى سيقتبس تلك الدرجة؟ فعندما أدرك أول رياضى أن هناك شيئاً مشتركاً بين ثلاث نخلات وثلاث حمير، ماذا كان مستوى فكرته هذه من التجريد؟ ويضرب سارتون أمثلة كثيرة، الصناعـــات المختلفـــة، كالسهام والآلات البسيطة، وأمور الطبـــخ، والزراعـــة، والنقـــل، والطـــب، والرياضيات، وجزئيات ما وصل إليه الإنسان منذ عصوره البدائية، وقبل ظـــهور الحضارات الكبرى، قبل عصور الكتابة، جزئيات تحصى، وكل منها أدخلـــت عليه تحسينات مستمرة، وقد تعودنا أن نعتقد- لأننا ولدنا فى مرحلة أصبحـــت فيها هذه الأمور اعتيادية- إن الإنسان منذ كان، يعرف هذه الأمور البسيطة جداً

---

[1] نفسه، ص٣٤٧-٣٤٩ .

[2] وشبيه هذا قول (لويد) عن بدء العلم، الذى يؤكد مثل سارتون - وهو لاحق له - على أهميـــة التكنولوجيا، وتجمع الخبرة تدريجيا (, E. R. Lioyd : Early Greek science . - Lodon, 1970, P. 2 ويعرف (كروثر) العلم بأنه " نظام السلوك الذى بواســـطته تتـــهيأ للإنسان السيطرة على بيئة، وبالتالى فلا يوجد مجتمع بشرى بدون علم مهما كانت نسبة " انظر : - G.G. crowther : the social Relation of science , London, 1967, P.1.

فى نظرنا، مع أن كل آلة من آلات القطع والنحت السلخ والضغط وغيرها، وكل اسم نبات، ومعرفة لخصائصه فى الأكل أو العقاقير، كل هذه الأمور استلزمت- على حد تعبير سارتون- "التعاون الشعورى واللاشعورى لآلاف من الناس"(١).

ويفسر سارتون كيف وصل البدائى أو أول رياضى فى العالم، إلى فكرة العدد: الواحد، الأثنين.. الخ على أساس تجريدى، وفى ذلك رد على دعاة "العلم المجرد" الذى بدأ مع اليونان ! إن ظهور العدد منذ كان الإنسان، أو على الأقل منذ آلاف السنين، قبل ظهور حضارة العراق ومصر والصين الخ، يعنى نوعاً من التجريد، هو التجريد كله، لأن الخطوة الأولى هى أهم الخطوات فى كل شيء، وجميع البشر، بل جميع أنواع الحيوان الواقع تحت الأنظار ينقسم إلى ذكر وأنثى، والأب والأم وطفليهما الأول يؤلفون ثالوثاً، وللنهر جهتان: مصعده ومنحدره، ولكن للشخص الواقف فى السهل تبدو جهات أكثر، فإذا وقف باسطاً ذراعيه انكشف لقطه أربع جهات متميزة.. لا يلبث أن تعبر هذا بكلمات أربع... وهى أمام ووراء ويمين، وشمال، ويمكن أن يضاف جهة خامسة هى المركز أى المكان الذى يقف فيه، فضلاً عن جهتين أخريين وهما السماء من فوقه والأرض من تحته، ومن هنا تنشأ تصورات الخمسية والستية والسبعية.

وأكتسب التصور الأول من هذه التصورات قوة بوجود الأصابع الخمس، وبذا كان من الطبيعى عند عد الأشياء على يد أو قدم واحدة، أن تقسم تقسيماً خمسياً، وأن توصف بأنها "كذا" و "كذا" من الأيدى، والمجموعات الأكبر من هذه- كالعشرة أو العشرين- جاءت طبيعية كذلك، ولكنها كانت أكثر صعوبة فى إدراكها، وأخذ معظم الناس - أو أن شئت فقل كلهم - هذه المجموعات العددية قضية مسلمة، ولم يعيروها تفكيرا، ولكن إذا ظهر بينهم رياضى مطبوع - وهل هناك من سبب ألا يظهر ؟ - فلابد أن يدرك وجود الأعداد، أى الأعداد المجردة المستقلة عن الأشياء المعدودة، أما اللاهوتيين وعلماء الكونيات فلعل عقولهم انبهرت بالواحد الذى تولدت منه جميع الأشياء الأخرى، أو بالاثنين

---

(١) سارتون : ص ٤٤-٤٥.

اللذين يعبران عن العندية، ونجد فكرة الثنائية التى تعمقتها الديانة " الزرادشتية " متأصلة فى أعمق قرارة الضمير الإنسانى [1] .

فالدافع لهذا التقدم فى الميادين المختلفة منذ كان الإنسان، هو الممارسة، وقانون الخطأ والصواب، والإقتداء بالطبيعة، وهذه المعارف هى علم بمعنى العلم البحث، إذ لا حدود لمعنى التجريد، وإذا كان المقصود بالعلم البحت، المعرفة لأجل المعرفة، فهذا غير صادق بإطلاق، إذ لكل معرفة محتواها الاجتماعي وجانبها العملى.

وإذا كان فضل العلم البدائى هو كما قدمنا، فإن ما قدمه المصريون وسكان وادى الرافدين مؤكد، ففى الرياضيات واللغة والفلك والطب والقانون والدين، قدموا الكثير مما يحتاج توضحيه إلى بحوث لا مجرد إشارة .

ويقدم سارتون معلومات عن طب متقدم عن المصريين، ويذكر أنصار الثقافة اليونانية فيقول :

" وينبغى أن يذكر أولئك الذين يقولون بأن هيبوكراتس أبو الطب، أنه يجيئ فى منتصف المسافة الزمنية بين ايمحتب [2] وبيتا، وفى ذلك ما يكفى لتعديل منظورهم إلى العلم القديم " [3]

ويكفى أن نقارن بين تشخيص المصرى القديم لأغراض المريض، ومعرفة المرض من خلال الفحص العام والخاص للجسم، ثم الملاحظة اليومية المستمرة، ثم العلاج، والتعليقات عن تقدم المريض، يكفى أن نقارن هذا كله بما نجده فى الطب الهيبوقراطي بعد المصريين القدماء بآلف سنة، لنرى مدى تقدم الطب عند المصريين [4]

---

[1] نفس المصدر : ص٥٢-٥٤، ص٥٧ وما بعدها.

[2] أقدم طبيب مصرى معروف باسمه وهو وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد.

[3] سارتون : ص ١١٣ .

[4] أنظر فى الطب الهيبوقراطى : كتاب لويد Early Greek Scierce, ch. 5

وعن الطب المصرى القديم : سارتون ص١١٤ وما بعد، وكذلك بول غليونجى، " ابن النفيس " الكويت، بلا تاريخ، الباب الثانى والثالث والرابع عن الطب البابلي والمصرى واليونانى، ص ١٥ -١٦ .

ويتساءل سارتون بعد ذلك :

" هل نستطيع أن نتكلم عن " علم " مصرى، أم هل كان ذلك تطبيبا تجريبيا عابراً وأساطير موروثة ؟ ما هو العلم ؟ أليس من حقنا أن نقول كلما حاول الإنسان حل معضلة بطريقة منهجية وفقا لترتيب سابق أو خطة، أننا أمام منهج علمى، أى إننا نشهد نشأة العلم على حقيقته، ... والمصريون لم يبدأوا العلم فحسب، بل قطعوا شوطا بعيدا فى الطريق الذى مازلنا نسير فيه " [1]

وعن فلك وادى الرافدين، ومآثرهم فيه، يقول سارتون :

" على أن سهمهم الكبير فى ميدان المعرفة الفلكية هو المعرفة العامة، إذ الواقع أنهم المؤسسون للفلك العلمى، وأن النتائج المدهشة التى حصل عليها الفلكيون الكلدانيون والإغريق من بعدهم أمكن تحقيقها بفضل استنادهم إلى الأساس البابلي [2]

وعن أهمية مسلة حمورابى، تقرأ قوله :

" وهذا القانون أقدم ما وصل إلينا من القوانين فى صورة كاملة تقريبا، وهو برغم قدمه أبعد من أن يكون شريعة بدائية، إذ ينم عن تطور طويل للفكر القانوني، ويصور لنا الناحية القانونية من العبقرية البشرية تصويرا باهراً، وهى ناحية لا يمكن الاستغناء عنها فى بناء أية حضارة " [3]

وينتهى سارتون إلى القول :

" وإنى واثق من أن الذين قرأوا ما قلته - على قصره- عن العلم المصرى والسومرى، فى أول عهده، يستطيعون أن يردوا على أولئك الأصدقاء- اليونانيين - فكثير من ذلك العلم القديم أصيل نقى جدير بالإعجاب، وبعضه أعلى مستوى من العلم اليونانى القديم، ومن الحيف أن يسرف الإنسان فى إظهار ما فى العلم الشرقى القديم من نواح لا تعتمد على العقل، وأن يقارنها بأعظم نواحى العلم

---

[1] سارتون، ص١٢٠-١٢٢ .

[2] نفسه، ص١٧٨-١٧٩ .

[3] نفس المصدر، ص١٩٢ .

اليونانى جنوحاً إلى استعمال العقل تاركاً الأسرار الدينية اليونانية وغيرها، ممـــا لا يستند إلى العقل، دون أن يتكلم عنها " [1]

وختاماً نقول مع سارتون :

والآن يبدو أن على كاهل الذين ينكرون تأثير الشرق فى الحضارة اليونانية، أو يبخسون قيمته، من العبء، فى إقامة الدليل على رأيهم، مثل ما على كـــاهل حضومهم... فالذين ينكرون إمكان تأثر اليونانيين بحضارات الشرق ويعوزهـــم التقدير الكافى للحضارات الشرقية القديمة، وتعوذهم الخبرة بـــأحوال الإنســان، وكلاوجهي هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى، أما اليوم فـــلا عذر لأصحابه .

٢- هوبهوز :

يقسم هوبهوز - وهو عالم أنثروبولوجى - المراحل الحضاريـــة الكـــبرى لتطور الفكر البشرى إلى خمس هى :

١- مرحلة مجتمعات ما قبل الكتابةthe pre-Literate Societies

٢- مرحلة بواكير العلم فى الشرق القديم، بابل ومصر والصين القديمة،

the stage of pre - to - science.

٣- مرحلة التأمل فى الشرق (القرن الثـــامن - الخـــامس ق.م) فى الصـــين وفلسطين والهند. the stage of Realection

٤- مرحلة التفكير الانتقادى المنظم فى الإغريق .

the stage of critical and systematic thought.

٥- المرحلة الحديثة ابتداء بالقرن السادس عشر [2] .

Modern World .. Aron the 16 th. C.

---

[1] نفسه، ص٢٧٣ .

[2] **Hobhouse : Mind in Evolution, london 1951, p.374 -385**

ويجعل هوبهوز هذه المراحل أربعاً فهو يدمج القسم الثالث والرابع معاً أى الفكر التأملى عند الصين والهنود وفلسطين واليونان، ويعطيه خصائص واحدة، فعلى يد البراهمة والزرادشتية، وفلسفة لا تسووكونفوشيوس، احتاج العقل المستيقظ إلى نظرية موحدة عن الكون، ولم يعد مكتفيا التفسير الأسطوري حيث استبدلت التخيلات البدائية بتصورات عقلية محددة مبنية على تحليل وإعادة بناء الأفكار البدائية [1]" وهذا له دلالة كبيرة، فهو هنا يعتبر تأملات هؤلاء وفلسفة اليونان من طبيعة واحدة، وهذا يقوى من شعورنا بأنه من الظلم حقا إصرار بعض المؤرخين الغربيين على أن التأمل الحق أو الفلسفة إنما تبدأ مع اليونان.

وعنده أن الإنسان فى (بابل ومصر) عرف المقولات، وميز بينها عمليا دون أن يسميها أو يصفها وصفا نظريا، على منوال ما نجده فى المنطق الصورى ابتداء بأرسطو، وهذا فى الحقيقة ينطبق على كل الفلسفة والعلم قبل أرسطو، ولكن ما قام به أرسطو ليس سوى وضع الإطار النظرى لما جرى الاعتراف به والإقرار بكامل مضمونه ونتائجه قبل فترة طويلة .

وينتهى (هوبهوز) إلى القول أنه لا العلم ولا الفكر ولا المنطق ولا الميتافيزيقا، بدأ مع اليونان، وأن أسس التفكير وضعت قبل اليونان، مثل تسمية الأشياء، تمييز بعضها عن بعض، معرفة خصائصها واستخداماتها، إدراك العلاقات فيما بينها، كذلك زاول الإنسان عمليا المقولات والمبادئ المنطقية، ووصلت فى أطوار متأخرة إلى ما يدل على إدراكه لها إدراكا تاما، يتضح ذلك فى أحكامه الخلقية، وقوانينه، وهندسته، وزراعته، وفنونه، وحرفه، وعلومه الطبيعية كالكيمياء، ولم يبق لليونان سوى وضع هذه القواعد المنطقية رسميا بشكل قوانين منطقية أو رياضية .

وكذلك، إن محاولة بناء موقف منظم " معقول" من الكون والأشياء وجد عند الصينيين والهنود وجميع الأديان الكبرى، كما أن العلوم قطعت شوطا عمليا ونظريا عند سابقى اليونان، وليس هناك وقت ولا مكان نستطيع أن نقول أن فيه بدأ العلم لأجل العلم، أو فيه بدأ التجريد العقلى والتعميم.

---

(1) **Mind in Evolution , p.459.**

٣- يذهب - أورسيل - إلى أنّ التفكير الفلسفى ليس وقفاً على الغرب وحده، بل إنه - الغرب - مسبوق فى هذه الناحية بالشرق، كما يقرر فى صراحة أنه ليس الآن من يستطيع الاعتقاد بأنّ اليونان وروما وشعوب أوربا فى العصور الوسطى والحديثة، هم، دون سواهم، أرباب التفكير الفلسفى؛ ففى جهات أخرى من الإنسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد، وظهرت أشعتها جلياً فى شتى الأنحاء[١]

وإنه ليكفى فى الدلالة على ذلك أن نورد بعض الوقائع الساطعة الثابتة : تفجر الروح الشرقية عند الفلاسفة السابقين لسقراط وعند أفلاطون نفسه، والأصل السامى لجمهرة الفلاسفة الرواقيين والجو الدينى الذى نمت فيه الأفلاطونية الحديثة، وغزو المذهب المانوى الإيرانى الأصل؛ وإذن يكون من السذاجة الظن بأنّ كل هذا مرجعه إلى تقدم العبقرية اليونانية تقدماً منطقياً حتمياً[٢].

وفى رأى أورسيل، أنّهُ ليس من السهل أنْ نعثر على أصل هذا اللحن، ولكن من الممكن أن نقترب من هذا الأصل، فندرك الأصول المشتركة للفكر الأوروبى الأسيوى، ونفهم كيف قامت هذه الحركة الفكرية الكبيرة، التى اتسع نطاقها فجابت العالم من أحد طرفيه للآخر؛ ولنأخذ مثلاً لهذا "ديانات الخلاص" التى نشأت ببلاد إيران، ونمت وترعرعت من منتصف الألف الأول قبل الميلاد فى أوروبا وآسيا بأسرهما، والتى لا نزال نشهد ظواهرها العديدة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه. ويذهب - أورسيل - إلى أنّ إدراك تلك الروابط والعلاقات إدراكاً واضحاً، لايتجه الى اعتبار هذه المذاهب متماثلة عن طريق الحكم التعسفى الذاتى على الظواهر، بل يكون عن طريق الصلات التاريخية الحقيقية القابلة للمراجعة والتمحيص، فإلى جانب بعض العناصر المشتركة التى توجد هنا وهناك، يُعترف بوجود عناصر أخرى ذات طابع خاص يجعلها غير قابلة للانتقال من حضارة لأخرى، ومن قبيل هذه العناصر، ما يوجد فى اللمحات القيمة للفكر الهندى والصينى.

---

(١)، (٢) أورسيل (بول ماسون) : الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف، بمصر، ١٩٤٧، ص٥، ص٩

ففى مبدأ التفكير الهندى كانت طقوس التضحيات، ثم نظام الخلاص السائد فى البوذية الذى وجد صداه بعدئذٍ لدى البراهمة المتأخرين، وممارسة "اليوجا"؛وفى الصين كانت أنظمة إنسانية ترمى إلى ضبط سير الفصول وشئون الدولة، والآداب الاجتماعية التى سارت على وتيرة كونية، وتصوف المذهب التاوى؛ كل أولئك ليست إلاّ قواعد عملية نشأت عنها بطبيعة الحال صورٌ تتفق مع تفكيرهم عن العالم والآلهة، وتتطلب لتكون واضحة ضرباً من الرمزية المنطقية، ولكن تمثيل تصوير الأشياء تصويرا منطقياً يستمد كل قيمتة من الوظيفة الضرورية التى يؤديها عملياً.

واذا كان البعض قد اعترض بأنّ تلك النظم الشرقية كان جلّها أكثر صلة بالحياة الدينية منها بالتفكير الفلسفى، فإن أورسيل يجيب بأنّ كلا نوعى التفكير قد اختلط خلال عصور الإنسانية كلها، وكل محاولة ترمى الى إيجاد فاصل حاسم بينهما سيؤدى الى جعل كليهما غير مفهوم.[1]

فمنذ أقدم عصور التاريخ قامت فى جهات مختلفة جهود فى التفكير الحر؛ فالمذهب الواقعى لم يحتكر الأخلاق المستقلة، ولا الروح التى لا تتقيد بالدين، ولكن يمكن أنْ نقول قطعاً بوجه عام إنّ البحث الفلسفى نشأ على أثر الإيمان بالدين، وكثيراً، ما تولدت الأديان عن الفلسفات.

٤- **يحدد توملين**، فيحدد خصائص الفكر الشرقى والغربى قائلاً:

إنّ من يتناولون فلاسفة الشرق بالدراسة، بعد دراسة عميقة للفكر الغربى - لابد أنْ يسترعى انتباهم مظهرٌ واحدٌ بارز، إذ أنّه فى الوقت الذى نجد فيه عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب، وخاصة فى العصر الحديث، يسهبون فى شرح مسائل فنية دقيقة، ويظهرون أنهم يتجنبون العموميات حول الكون باعتباره كلاً، نجد أنّ فلاسفة الشرق لم تغب عن نظرهم قط المسألة الأساسية، أى تلك التى تتناول معنى الحياة والغرض منها.

ومن أقدم التأملات الفلسفية الملازمة للفكر الهندى القديم، إلى حكماء الهند المعاصرين، استمر البحث بدون توقف لا سعياً وراء المزيد من اليقين، بقدر ما هو بحثٌ عن الحقيقة، كما أنّ هذا الانشغال لم يكن وقفاً على قلة قليلة من

[1] الفلسفة فى الشرق، ص١٦

الناس، لهم تفردهم وعلمهم، أو ورعهم فى كل جيل، بل فرض نفسه على عقول ملايين، ممن يعج بهم الشرق، من وجهة نظر الغرب، ومن ثم كان هذا التميز الذى يلقى قبولاً من الجميع، بين "مادية الغرب" و"صوفية" الشرق[1]

ويرى -توملين- أنّ مايضفى على دراسة الفكر الشرقى سحره الخاص به، هو حقيقة، أنه ليس مجرد كونه أعرق قدماً من الفكر الغربى، بل لأنه يعبر عن استمرار أبعد، وفى استعرضنا لتاريخ الفكر البشرى الطويل نلاحظ أنّ البحث الفلسفى الغربى ماهو إلاّ مجرد فرع -برغم ازدهاره- من شجرة العائلة الشرقية، وهذا بلا شك هو السبب فى أنّ المفكرين الأوروبيين أمثال شيلنج وشوبنهاور وجوته وتولستوى، قد أدهشهم، عند بدء تعرفهم على الفلسفة الشرقية، عمقها المذهل، وهى فى الواقع عميقة، وعمقها هو ذلك العمق الذى هو نتيجة أنّ لها جذوراً عميقة.

٥- يدعونا (**كولر**) إلى أنْ نفهم الفلسفة الشرقية، على نحو ما فهمها أصحابها، بمعنى ألا نحاول أنْ نفرض عليها مفاهيم جاهزة، مستمدة من الفلسفة الغربية، إنّ علينا، كما يقول، أنْ ندرس الفلسفة الشرقية فى إطار معاييرها الخاصة.

ويذهب إلى أنّ فلاسفة الغرب يهتمون، فى بعض الأحيان، بأنهم يعيشون فى أبراج عاجية، عندما يعكفون على مفاهيم مجردة بعيدة عن أرض الواقع، ويكتفون بتركيز اهتمامهم فيها، متجاهلين المسائل الكبرى المتعلقة بالحياة، أما فلاسفة الشرق، فهم - فى رأيه- قد تجنبوا هذه التهمة عندما استمر التواصل بينهم وبين مسائل الحياة، عائدين بصفة مستمرة إلى محك التجربة الإنسانية.

لكن ذلك لا يعنى أنّ فلاسفة الشرق قد ركزوا فلسفاتهم ومذاهبهم على مشكلات السلوك البشرى والقيم الأخلاقية وحدها، فنحن نجد عند كثيرين منهم اهتماماً بمشكلات ميتافيزيقية أساسية.

---

[1] أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠، ص ١٧ من المقدمة

فهناك مدرسة ترى أنّ الذات أو النفس جوهرٌ قائمٌ بذاته، بل وتنظر إلى الواقع نفسه من هذا المنظور، فى حين تنكر مدارس أخرى فكرة الجوهر وتعتبرها مجرد "وهم" لا أساس له، وهناك مدارس تؤمن بأنّ الواقع مؤلفٌ من عدد هائل من العناصر النهائية، وهى التى يسميها -كولر- بـ "الواقعية التعددية"، ثم تأتى مدرسة أخرى تفند هذه "الواقعية التعددية"، وترى أنها تنطوى على تناقض ذاتى، لأنّ الواقع هو مجرد "خواء".

هناك مدارس، إذن، ترفض "الجوهر" و "الهوية" والدوام أو الثبات، وترى أنّ هوية الأشياء ودوامها مسألة وهمية؛ ومن ثم فإنّ رؤية الواقع من خلال منظور الجوهر هى زعمٌ باطل لا أساس له، لأنّ الأشياء لا تكف عن الظهور والاختفاء، فلا هوية دائمة بين الأشياء، بل عناصر تنشأ وتتفرق، وتتوقف وتظهر وتختفى على نحوٍ مستمر.

وهناك مدرسة " التاو ..Tao " الشهيرة التى تجعل المبدأ الأول المطلق لكل شيء وجوداً لا سمة له ولاخواص، ولاتعيّن ولاتحديد، لكن الوجود الذى يخلو تماماً من كل سمة هو " العدم " وهكذا نجد أنّ البداية التى كانت وجوداً خالصاً قد تحولت إلى عدمٍ خالص، فتخبرنا هذه المدرسة، أنّ الأضداد يتحول بعضها إلى بعض، فعندما يصل شيءٌ ما، وهو يسير فى اتجاه معين، إلى حده الأقصى، فإنه يعكس اتجاهه، ويعود الى الاتجاه الآخر، وينطبق هذا المبدأ على عالم المادة والروح على حدٍ سواء، فعندما تغدو الدنيا باردة للغاية فلا بد أنْ نتوقع أنّ عكساً للأمور سوف يقع، بحيث يبدأ الدفء فى القدوم، وعندما يتفاقم الحر، يبدأ فى الانعدام، ويظهر البرد، وهذا هو طريق الطبيعة على نحو ما نراه فى تعاقب الفصول، كذلك عندما تكون هناك حياة، يكون هناك موت، وعندما يكون هناك موت تكون هناك حياة، وقُل مثل ذلك فى الأمور الروحية، فعندما يغدو شخصٌ شديد الكبرياء والغرور فإنّ الفضيحة والذل يعقبان[1].

وفى اعتقاد كولر، أنّ تراث الفلسفة الشرقية، لايقل قيمة ولا أهمية عن تراث الفلسفة الغربية، أما الزعم بأنه لا يمكن الأخذ بيد شخصٍ ما إلى رحاب الفلسفة إلاّ من خلال دراسة كبار المفكرين، والمشكلات الرئيسية فى التراث

---

[1] راجع جون كولر، الفكر الشرقى القديم، ص١١-١٢ من المقدمة.

الغربى، فهو افتراض ضيق الأفق على نحو بالغ الوضوح، حتى أنّ المرء ليعجب من أنه استمر قائماً دونما تقيدٍ له بصورة كاملة تقريباً.

ويُنظر فى الغرب إلى الفلسفة، عادة، من خلال فلاسفة العالم الغربى التقليديين، ولكن ليست هناك ميزة خاصة فى فهم طبيعة الفلسفة والمشكلات الفلسفية، أنْ ندرس فلاسفة تصادف أنهم عاشوا فى نصف الكرة الغربى، فالموقع الجغرافى لا أهمية له هنا، وهناك بالطبع، ميزة فى دراسة الفلاسفة الغربيين، إذا لم يكن مقتصراً على فهم طبيعة النشاط الفلسفى، والاقتراب من مواقف فلسفية معينة فحسب، وانما استخدام التراث الفلسفى كوسيلة لاستيعاب تلك الأفكار التى شكلت الوضع الراهن للإنسان فى نصف الكرة الغربى، ولكن هناك، للسبب نفسه، ميزة فى دراسة الفلاسفة الشرقيين، ذلك أنّه بالإضافة إلى تعرف المرء على طبيعة الفلسفة، فإنه يكتسب كذلك فهماً للوضع الراهن للإنسان فى الشرق.

والأسئلة المهمة المتعلقة بالحياة ليست مختلفة بالنسبة للشرق عنها بالنسبة للغرب، وأسئلة من قبيل: ما الإنسان؟ ماهى طبيعة الكون الذى يحيا فيه الإنسان؟ فيم تتمثل الحياة الفلسفية؟ وكيف يتأتى لنا أنْ نعرف أنّ الدعاوى التى ندعيها عن طبيعة الإنسان والكون والحياة الطبيعية هى دعاوى حقيقية؟ هذه الأسئلة، هى أسئلة فلسفية أساسية مشتركة بين البشر جميعا، على امتداد العالم، لأنها تثور حينما وحيثما يتأمل الإنسان فى تجربته، وتثور هذه الأسئلة، بالطبع، فى سياقات مختلفة، وتتخذ أشكالاً متباينة، بالنسبة لأناسٍ يعيشون فى أزمان مختلفة، وأماكن شتى، وقد تختلف الإجابات فيما بينها اختلافاً كبيراً، ولكن تلك مشكلات الإنسان بإعتباره إنساناً، تنشأ من الفضول المواكب لطبيعته الواعية بذاتها، والإلحاح الفطرى لتحسين ظروف وجوده، وما من موجود بشرى يمكن أنْ يحيا دون أنْ يُمعن النظر فيها؛ وليس المهم أنْ نُجيب، أو لا نجيب، عن هذه الأسئلة، بل ما إذا كانت الردود ستكون صريحة ومدروسة، وقوية الحجة، أو مفترضة، وضمنيةً فى الأعمال التى تشكل تاريخ شخصٍ بعينه واستناداً إلى الافتراض السهل القائل، بأنّ فهم هذه الأسئلة على نحو ما طرحها الفلاسفة، وتحليل الإجابات التى قدموها من شأنه أنْ يُساعد الشخص على أنْ يتفهم الإجابات التى يقدمها فى معرض الرد على هذه الأسئلة، وأنْ يقومها بشكلٍ أفضل - استناداً إلى هذا الافتراض- يبدو جلياً أنّه من المهم معرفة الأشكال الخاصة والسياق الخاص

بالأسئلة الفلسفية الأساسية والرد عليها، لا على نحو ما تبدت فى التراث الغربى فحسب، وإنما على نحو ما تجلت فى تراث الإنسان الفلسفى بأسره.

فقصة الفلسفة هى قصة التأمل البشرى فى الحياة، ومشكلات الحياة هى نبع الفلسفة ومحك اختبارها، ولو أنّ احتياجاتنا العملية كافة تمت تلبيتها، وجرى اشباع فضولنا الإنسانى، فمن غير المحتمل أنْ يكون هناك نشاط فلسفى، ذلك أنّ المصدرين الأساسيين، للفلسفة هما الفضول فيما يتعلق بالذات وبالعلم، والرغبة فى التغلب على جميع أنواع المعاناه؛ إذ تُفضى الاحتياجات العملية والفضول النظرى إلى النشاط الفلسفى، فالناس يتأملون ذواتهم على نحو طبيعى، وليس لنا احتياجات وفضول فحسب، وإنما نحن ندرك أنّ لذواتنا هذه الاحتياجات وذلك الفضول، ونحن ننظر إلى ذواتنا فى سياق ما يحيط بنا، باعتبارنا كائنات تكافح للتغلب على المعاناة، وتحاول كشف أسرار الوجود، وعلى هذا النحو فإننا نفحص أى نوع من الموجودات نكون؟ وفى أى نوع من العالم نعيش، كما نفحص مصادر القيمة والمعرفة التى تميز وجودنا، فالنشاط الذى يدور حول تأمل الذات هو ما يشكل الفلسفة.

ولكن كيف يتأتىّ لنا أن نعرف أنّ أفكاراً بعينها صحيحة؟ إنّ التفكير التأملى يضع كل فكرة موضع التساؤل، ويسعى إلى معيار يختبر به مدى صحتها، وفى غمار هذه العملية تتولد أفكار جديدة، وتُوضع موضع التساؤل، وإما أنْ تُقبل أو تُرفض، وفى سعينا لأنْ نعرف على وجه اليقين مَنْ نحن، وكيف ينبغى لنا أنْ نحيا، فإننا لا نتأمل تجربتنا فحسب، وإنما نُمحص أفكار الآخرين، الذين أمعنوا التفكير بمزيد من العناية فى أسئلة الحياة الجوهرية.

ولمّا كانت هذه هى أكثر الأسئلة أهمية، فإنّ علينا أن نتصدى لكل رد مُقترح، وأنْ نختبره بكل ما وسِعنا من طرق، للتأكد من أنّه ردٌ يمكن الاعتماد عليه، وكل صياغة للسؤال، ولكل جانب من كل رد ينبغى فحصه من كل الوجوه، بل ينبغى التصدى بالفعل للمعايير التى تستخدم فى اختبار ردودنا، ولكن كيف نعرف متى يكون الجواب صحيحاً؟ وما المعرفة؟ وكيف نعرف أنّ ما نسميه بالمعرفة هو معرفة حقاً؟

والغرب، فى رأى كولر، مسئولٌ إلى حدٍ كبير، عن اهمام الفلاسفة فى بعض الأحيان، بأنهم يعيشون فى أبراج عاجية، متجاهلين الاهتمامات الكبرى المتعلقة

بالحياة، ذلك أننا- فى الغرب والحديث لكولر - معتادون، إلى حدٍ كبير، على النظر إلى الفلسفة باعتبارها شيئاً مستقلاً عن الحياة، مغرقاً فى التجريد، وفى الطابع الأكاديمى بالنسبة للشخص العادى[1] .

أما فى الشرق فإنَّ الهُوة بين الفلاسفة والناس العاديين، ليست على هذا القدر من الاتساع، ذلك أنَّ الفلاسفة الشرقيين يستمرون فى التواصل عن كثب مع الحياة، عائدين إلى محك التجربة الإنسانية لاختبار نظرياتهم، والناس العاديونَ يمتدون باهتماماتهم إلى ما يتجاوز حياتهم العادية، ويكافحون لرؤية الوضع الصحيح لوجودهم ولفهمه، من خلال المفاهيم الفلسفية.

ويرجع هذا الاختلاف بين الشرق والغرب، وهو على وجه اليقين أختلاف فى الدرجة، فى جانب من جوانبه، إلى التشديد الشرقى على كمال الحياة والمعرفة، ويميل الشرقيون إلى تجنُّب تجزئة وعزل الحياة والمعرفة، والنتيجة المترتبة على ذلك هى أنَّهم لايفصلون بين ميادين الفلسفة المختلفة، مثل نظرية المعرفة، ونظرية الوجود، ونظرية الفن، ونظرية السلوك، ونظرية التنظيم السياسى، فليس هناك تمييز قاطع بين الفلسفة الشرقية والديانة الشرقية، أو بين الفلسفة وعلم النفس، أو بين الفلسفة والعلم، ومن النتائج المترتبة على ذلك، الميل الشرقى إلى حمل الفلسفة محمل الجد البالغ، فهى فى الشرق ليست أمراً مجرداً متسماً بالطابع الأكاديمى، أو لاتربطه كبير صلة بالحياة اليومية، وإنما يُنظر إليها باعتبارها المشروع الأكثر أهمية وجذرية للحياة.

ونأخذ مثالين لذلك، "الكونفوشية" فى الصين، و"اليوجا" فى الهند، فالأولى أصبحت الفلسفة الرسمية فى الصين، لدرجة أنه كان من المستحيل الحصول على وظيفة حكومية دون معرفة أعمال كونفوشيوس، ويُحدثنا التاريخ الصينى عن العديد من الملوك والفنانين والمثقفين الذين كانوا فلاسفة، وينظر الصينيون إلى الفكر والممارسة، على أنَّه لاينفصل أحدهما عن الآخر، كجانبين لنشاط واحد، وتنعكس المشكلات الجوهرية للفلسفة الصينية فى هذين السؤالين: " كيف يمكننى تحقيق التناغم مع الإنسانية بأسرها؟" و" كيف يمكننى تحقيق التناغم مع الطبيعة؟".

---

[1] الفكر الشرقى القديم، ص ٢٠

وكون المرء فى حالة تناغم مع نفسه قد نظر إليه باعتباره الأساس الضرورى لتحقيق التناغم مع الآخرين، وكون المرء فى حالة تناغم مع نفسه ومع بقية الإنسانية هو "الخير الأسمى" فى الفلسفة الصينية، ولما كانت الطبيعة الأساسية للإنسان يُنظر إليها، أساساً باعتبارها طبيعة أخلاقية، فإنّ السائد فى الجانب الأعظم من الفلسفة الصينية قد تمثّل فى الأخلاق؛ وتمثل فى السؤالين: " كيف يمكننى أنْ أكون خيّراً؟" و " ماهو أساس الخير؟" هما سؤالان أساسيان، على امتداد تاريخ الفلسفة الصينية.

والثانية – أى اليوجا الهندية – فتهدف إلى تحقيق التكامل المطلق للحياة، فى شكل ترويض النفس، ولكى يُتاح هذا لكل الأشخاص، فإنه يتم توجيهه عبر نشاطات العباده والتفانى، ونشاطات العمل، ونشاطات المعرفة والتركيز، ودروب ترويض النفس، هذه هى الحكمة الفلسفية، التى تناهت عبر العصور وقد وضعها الناس موضع الممارسة، ويمكن العثور على مصدر حكمة ترويض النفس هذه فى ذلك التركيب، المؤلف من التجربة الشخصية العميقة والثرية، والتفسير العقلانى المجرد إلى حدٍ بعيدٍ، الذى يميز العقلية الهندية.

وقد اعتنق الملايين من الناس فى المناطق البوذية من آسيا، تعاليم "جوتاما سد هارت" [1] الساعى وراء الحكمة، باعتبارها حلاً لكل ضروب المعاناة التى تحفل بها الحياة، والمشكلة الجوهرية لدى البوذية هى مشكلة التغلب على المعاناة، وتدور التعاليم الأساسية التى قال بها بوذا حول هذه الأسئلة: ما المعاناة؟ كيف تنشأ؟ كيف يمكن القضاء عليها؟ كيف يتعين علينا أنْ نحيا لكى نحقق وجوداً يخلو من المعاناة؟ غير أنه لا سبيل إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، دون البحث فى طبيعة الذات التى تُعانى، وطبيعة العالم الذى يُشكّل مصدراً للمعاناة وبالنسبة للذات.

ويمكننا ذكر حالات تشابه عديدة بين مفكرى اليونان ومفكرى الهند، فالطبيعيون اليونانيون لهم أمثالهم فى أصحاب نظرية الجوهر الفرد القدماء، التى تعد

---

[1] مؤسس البوذية، وُلد فى حوالى العام ٥٥٣ ق.م.، ابناً لأحد زعماء قبيلة ساكاس، عند الحدود الجنوبية لنيبال، وقد أدرك أنّ الموت يُلقى بظلاله على الحياة بأسرها، فتحول إلى ناسك، محققاً الاستنارة تحت شجرة "بو" فى العام ٥٢٥ ق.م. وواصل نشر تعاليمه، حتى وفاته فى حوالى العام ٤٨٠ ق.م.

أساساً للأنظمة الفلسفية أو الدينية فى الهند، وفلسفة هيراقليطس والفيثاغوريين فلسفتان شبيهتان كل الشبه بالفلسفة الهندية؟ الأولى بحكم فكرة التشاؤم بالمستقبل، والثانية بحكم اعتقادها بتناسخ الأرواح ورغبتها الصادقة فى الخلاص، والتصوف العددى يجعل صلة قرابة بين الفيثاغوريين والبوذيين، كما يجعل اتصالاً بين الساميين والمدرسة الأفلاطونية، وهناك فى هذين الوسطين، نجد سوفسطائيين وشكاكاً، فالأوائل ينقبون عن موارد للحجج، والآخرون ينكرون اليقين المنطقى، ولهذا يمكن أنْ يُقال عن كليهما من الكلبيين[1]، ولنضف إلى ما تقدم، أنَّ ما أثر عن أصحاب الرواق والأبيقوريين يحاكى تماماً النحل الشرقية التى تبحث عن الخلاص والسعادة بواسطة المعرفة .

وكان تأثر الفلسفة اليونانية بأديان الشرق ومعتقداته من أبرز سماتها فى هذا العصر، فعرفت الزرادشتية ونظريتها الثنائية فى الخير والشر وتفرقتها بين المادة والنفس، وعرفت عبادة ميترا إله الشمس فى فارس، ومجَّده الرومان بخاصة لأنَّه إله الحروب، وعرفت ديانات الهند وفلسفاتها، كذلك عرفت الثقافة اليونانية بلاد الشرق الأوسط، واشتد الصراع بينها وبين تراث اليهود والمسيحية، وانحصرت مشكلات الفلسفة نتيجة لكل ذلك فى البحث عن سعادة الفرد، ولم تُعد الأخلاق، التى أصبحت المبحث الرئيسى فى كل فلسفات هذا العصر تُفهم على النحو السابق الذى كان لها عند فلاسفة عصر أفلاطون وأرسطو، وتخلصت من ذلك الجانب السياسى والاجتماعى الذى كانت تتميز به.

وعلى الرغم من الفوارق العديدة بين فلسفات الهند والصين والمناطق البوذية من آسيا، فإنَّها تتلاقى عند الاهتمام المشترك بالحياة والوجود، وكذلك بالتعليم والمعرفة، ولذلك كان للفلسفة والفلاسفة أهمية فائقة فى الثقافات الشرقية

---

[1] سُمِّيت هذه الفلسفة بالكلبية لأنَّ مؤسسها (أنتيستس) كان يتخذ من ملعب الكلب مكاناً للتعليم، ولأنَّه فى رواية أخرى كان يُلقِّب نفسه بالكلب، وقد كان من أشهر تلاميذ سقراط، وتتلمذ أيضاً على أشهر سفسطائيى عصره مثل جورجياس، والفضيلة عنده فى الأعمال والسلوك، وليست فى النظر، ولاتحتاج إلى علم ولا إلى هبة إلهية، ولكنها ثمرة التعود والممارسة، شاع عنه قوله إنَّ الفضيلة هي الطريق الوحيد إلى السعادة، وأنها السلاح الذى لايجب أنْ نُلقى به مهما كانت الأحوال، وأنَّ علينا أنْ نُحصِّن أنفسنا بأسوار قوية من الفضيلة.

كافة، ومن الضرورى لفهم حياة الشعوب الشرقية ؛ مواقفها من فهم فلسفاتها، ولفهم هذه الفلسفات من الضرورى إمعان النظر فى التراث الذى تطورت فيه هذه الفلسفات والتى تُواصل من خلاله تغذية ثقافات آسيا .

٦-"برنال" وموسوعته " أثينا السوداء " والأصل المصرى- الشامى للحضارة اليونانية:

ونصل إلى (برنال) صاحب كتاب "أثينا السوداء" الذى صدر مجلده الأول والثانى خلال السنوات الثمانى الماضية، وأثار العديد من القضايا الفكرية الهامة فى العالم الآوروبى والعربى، باعتباره من أكثر الكتب الجادة التى قوضت مفهوم " المركزية الآوروبية" وأثبتت دور الحضارات القديمة (المصرية بصفة خاصة) فى التأثير على الحضارة اليونانية، ومن ثم على الحضارة الأوروبية المعاصرة، وكثرت المقالات العربية التى تناقش أهمية الكتاب، باعتباره من الكتب الهامة التى تشير إلى العلاقة بين الحضارات القديمة، ووحدة الأصول الإنسانية .

(ومارتن برنال) صاحب الكتاب الموسوعة- أثينا السوداء- إنجليزي يعود في أصل أحد أبوبه إلى اليهودية، يعمل أستاذاً فى جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية، درس العلوم السياسية والإدارية فى كمبردج وتخصص فى اللغات الصينية والآسيوية. وعنوان الكتاب - أثينا السوداء - فى حد ذاته- وكما يصفه الدكتور حسن حنفى[1] -جميل ودال، ويدعو إلى التفكير والتساؤل، أثينا ليست بيضاء أى أن مصدر حضارتها ليس الغرب الآري بل أفريقيا السوداء أو الشرق الشامى فى آسيا، لذلك وضع المؤلف عنواناً فرعياً " الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة القديمة" [2]، والكتاب كله فى أجزائه الثلاثة ملحمة فى تاريخ

---

[1] الدكتور حسن حنفى: أثينا السوداء- أثينا المصرية، مجلة القاهرة، العدد (١٥٦) نوفمبر ١٩٩٥م، ص ١٨٠-١٨١.

(2) **Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic rrots of classical civilization; Rutgers Universty press. New Brunswick, New Jersy, U.S.A.**
Vol.1 - The Fabrication of Ancient Greece 1785-1985-1987.
vol.2 - The Archedogical and Documentary Evidence, 1991.
Vol.3- Solving the Riddle of the sphinx, In print.

مصر، وأنشودة لدورها فى التاريخ، وفضلها على الحضارات الشرقية والغربية على السواء.

ويحاول الكتاب تأكيد الأصل المصرى- الشامى للحضارة اليونانية القديمة، وبالتالى للفكر الغربى بشكل عام، وأكد برنال فى لقائه مع المثقفين المصريين، على أن الكتاب ينصرف إلى التالى:

أن قدماء اليونان كانوا يرون أنهم استمدوا العناصر الرئيسية فى حضارتهم - مثل الأبجدية والكتابة - من مصر وبلاد الشام، وهناك روايات عدة تركها الكتاب اليونان القدماء تحكى لنا قصة علاقة قديمة نشأت بين بلاد اليونان - منذ أقدم مراحل تاريخها- وبين بلدان الشرق الأوسط، خصوصاً مصر وفينيقيا، إلا أن الأوروبين المحدثين أنكروا هذه العلاقة، وذهبوا إلى أن حضارة اليونان -وبالتالى أوروبا - كانت متأثرة بمؤثرات تأتى أساساً من مصر والشام.

وملخص ما يقوله برنال هو أن القصص الأسطورية اليونانية القديمة تحكى حكاية جماعات مصرية وسورية استوطنت بلاد اليونان منذ القدم، كما أن أسماء المعبودات والمدن اليونانية تشبه الأسماء المصرية والفينيقية القديمة.

وتبين له من دراسة اللغة العربية- التى تعتبر جزءاً من اللهجة الكنعانية القديمة وجود تشابه بين هذه اللغة وبين اللغة اليونانية، ليس نتيجة للمصادفة، وإنما نتيجة لتنقلات التجاور الفينيقيين بين المدن اليونانية، وظهر له أن هناك العديد من الكلمات اليونانية التى تشبه الكنعانية، ليس فقط فى طريقة نطقها، وإنما أيضاً فى معناها، وبعد دراسة استمرت أربع سنوات، تبين له أن ربع الكلمات اليونانية القديمة يرجع فى أصله إلى العائلة السامية للغات، ثم لاحظ برنال -عند دراسته للغة القبطية- أن هناك تشابهاً كذلك بين ربع آخر من الكلمات اليونانية، وبين اللغة المصرية القديمة، وهنا بدأ يفكر فى احتمال أن تكون الروايات اليونانية القديمة ذات الطابع الأسطورى، والتى تشير إلى أن المصريين القدماء قاموا- بالاشتراك مع الفينيقيين - باستيطان بلاد اليونان، ذات دلاله تاريخية، و ليست مجرد روايات خيالية.

وتوصل برنال فى بحثه إلى أن الهكسوس الذين سيطروا على مصر منذ أواخر القرن ١٨ ق.م، قاموا فى ذلك الوقت بمد نفوذهم إلى البلاد اليونانية، وهذا

هو السبب- فى رأيه- لانتقال عناصر الحضارة المصرية / الشامية، إلى بلاد اليونان منذ القدم.

بعض كتابات اليونان القدماء تكشف عن اثر مصرى وشامى قديم فى الحضارة اليونانية:

واستعرض مارتن برنال فى الفصل الأول من الجزء الأول من "أثينا السوداء" بعض الإشارات التى وردت فى كتابات اليونان القدماء، والتى تكشف عن أثر مصرى- شامى فى الحضارة اليونانية القديمة.

أ- هيرودوت:

يذكر هيرودوت أن الفينيقيين الذين حضروا إلى بلاد اليونان مع (قدموس) أدخلوا إلى اليونان، بعدا استقرارهم فى البلاد عدداً من المنجزات من أهمها الكتابة، وهى فن- على ما أعتقد- كان غير معروف لليونان.

وتحدث كذلك عن أن اليونان أخذوا أسماء آلهتهم عن المصريين، "ميلامبوس- فى رأيي - كان رجلاً قديراً وهو الذى حصل على فن العرافة، وأحضر إلى اليونان، مع تغيير بسيط، عدداً من الأشياء كان تعلمها فى مصر، من بينها عبادة ديونيسوس، وربما حصل (ميلاميوس) على معرفته بديونيسوس الصورى (الفينيقى) ومن حضر معه من فينيقيا إلى البلاد المسماة الآن بيوتيا، وجاءت أسماء كل الآلهة تقريبا من مصر.

ب- فيثاغورس:

أغلب المعلومات التى وصلتنا عن حياة فيثاغورس ورد فى كتاب "يامبليخوس" أحد أتباع أفلاطون فى القرن الرابع الميلادى الذى اعتمد على المصادر الموجودة فى عصره لكتابة تاريخ حياته، يقول الكتاب:

أن فيثاغورس ولد فى مدينة صيدا الفينيقية، ومنذ طفولته عهد أبوه بمهمة تربيته إلى معلم سورى، ولما بلغ فيثاغورس الثامنة عشرة من عمره رحل للقاء طاليس الذى نصحه بالسفر إلى مصر لاستكمال علومه هناك على يد كهنة منف، وبحسب ما جاء فى الفصل الثانى من كتاب يامبليخوس، فإن طاليس اعترف لفيثاغورس (بأن شهرته هو فى الحكمة جاءت عن طريق التعاليم التى تلقاها من هؤلاء الكهنة).

وفى مصر أمضى الشاب اليونانى - فيثاغورس- حياته متنقلاً بين معابدها، حيث درس على يد الكهنة مختلف فروع العلم والمعرفة، وتدرب على علوم الفلك وأعمال المساحة والهندسة، وتعرف على الطقوس الخاصة بجميع المعبودات.

وقد أمضى فيثاغورس أثنى عشر عاماً ما أخرى من حياته فى بابل، تعرف خلالها على الاعتقادات البابلية والفارسية، قبل عودته إلى موطنه فى جزيرة ساموس، وقد بلغ السادسة والخمسين من عمره.

وهكذا نرى أن فيثاغورس، أهم فلاسفة اليونانية فى القرن السادس ق.م ولد فى فينيقيا، وأمضى حياته طالبا للعلم فى بلاد الحضارات الشرقية القديمة خاصة مصر وبابل، ليس هذا فقط، وإنما كذلك أن طاليس - أول فلاسفة اليونان - نفسه تلقى تعاليمه فى مصر، على يد كنهة منف.[1]

حـ- سقراط:

ويؤكد لنا سقراط ما جاء فى كتاب يا مبليخوس عن الأصل الشرقى للفلسفة اليونانية، فهو يذكر " أن المصريين يعيشون كشعب واحد، لا يهملون ممتلكاتهم ولا يتآمرون للحصول على ممتلكات الآخرين، وإذا رغبنا فى تطبيق قوانين المصريين التى تقضى بان يعمل البعض، ويقوم الباقون بحماية ملكية العاملين، فسوف يمكننا جميعا تملك أمتعتنا وقضاء أيامنا فى سعادة " .

ويتحدث سقراط هنا عن المزايا التى تحققت للمصرين عندما تم توحيد بلادهم وتكوين حكومة مركزية واحدة، فقد أدى هذا إلى إمكان التخصص وتوزيع العمل، بحيث يمكن زيادة الإنتاج، مما أتاح الفرصة أمام الحكومة لتنفيذ مشروعات ضخمة، كما وفر الفرص أمام عدد منهم للتفرغ لتحصيل الدراسة والعلم، الذى أصبح هو جوهر التقدم الحضارى بعد ذلك.

ويتابع سقراط حديثة قائلا :

" إن المصريين يقومون بتدريب فلسفى للروح لمتابعة القدرة، ليس فقط على إنشاء الشرائع ولكن للبحث فى طبيعة الكون كذلك، وتستحق تقوى المصريين بصفة خاصة وعبادتهم للآلهة الثناء والإعجاب ... فكل هؤلاء الرجال

---

(1)_

1957 pp. 199-200, p.203

الذين ألهمونا رهبة الآلهة فى البداية - فى الواقع - جعلونا نختلف عن علاقاتنا مع بعضنا البعض عن الوحوش المفترسة، وأكثر من هذا هو الورع الكبير والجدية التي يتعامل بها المصريون أكثر إلزاما مما لو تم فى مكان أخر - بل إن كل شخص منهم يؤمن بأنه سيدفع جزاء سيئاته فورا، وأنه لن يتمكن من الهرب من اكتشاف أمره " .

ويمضى سقراط ليحدثنا عن فيثاغورس وما جلبه من مصر من العلوم الفلسفية، ففى رأيه، أن فيثاغورس، في زيارته إلى مصر، كان هو أول من جلب كل الفلسفة إلى اليونان، وأهتم هو نفسه بشكل أكثر وضوحاً من الآخرين، بالأضحيات وبشعائر الطهارة، لأنه اعتقد -حتى لو لم يحصل بهذا على ثواب كبير من الآلهة- بأن سمعته ستزداد عظمته بين الناس فى كل الأحوال، وهذا ما حدث له فعلاً، فهو تفوق على الآخرين فى سمعته إلى درجة كبيرة، حتى أن كل الشباب رغبوا فى أن يصبحوا تلاميذه .[١]

د- أفلاطون:

مما لاشك فيه أن أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) هو أهم الفلاسفة اليونان على الإطلاق، وأول مفكر غربي يكتب فى الموضوعات الفلسفية الخالصة، وإن كانت السياسة هي التي شغلت اهتمامه في البداية، كتب عن ما وراء الطبيعة، والمعرفة، والمنطق، والأخلاق، والسياسة، واللغة، والفن، والحب، والرياضيات، والعلم، والدين، وجاءت كتاباته كلها على شكل حوار بين شخصيات عدة أهمها شخصية أستاذه سقراط.

وتقول مصادر قديمة أنّ أفلاطون زار مصر عام (٣٩٠ ق.م) - بعد تسع سنوات على إعدام أستاذه سقراط - وقضى فترة من الوقت هناك يتحدث إلى الكهنة، وبعد عودته إلى أثينا حدث تطورٌ أساسي في فكره، فأصبح يناقش قضايا فلسفية مختلفة عن القضايا الاجتماعية التي اهتم بها سقراط، فتحدث عن انفصال الروح، ووجودها المستقل عن الجسد، في محاورته "فيدون" وفي "تيماوس"، يناقش

---

(١) راجع: .: Richmaond, W.R .: Scocrates and the Western Worled . London -
1954.
- Xenophone : Memorabilial, p.3-8,It , 2,v,5,1.

أفلاطون مسألة خلق الكون، والسبب أو المحرك الرئيسي له، إلاّ أنّ أهم أعمال أفلاطون كلها هو محاورته "الجمهورية"، حاول فيها تحديد معالم المدينة الفاضلة.

والموضوع الرئيسي فيها هو: ما هي طبيعة الفضيلة؟ وماهي أفضل طريقة لتنظيم المجتمع البشري؟ وتحديد ماهية الفضيلة عنده يكون داخل العلاقات الاجتماعية وليس في عزلة عنها، وهو يقسم الكيان الاجتماعي إلى ثلاث طبقات رئيسية، وبينما تقوم غالبية المواطنين بعملية الإنتاج، فإنّ هناك من يتولى مهمة الدفاع عن المجتمع في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، كما أنّ هناك من يتولى حكم الجماعة وقيادتها.

ولكلٍ من هذه الطوائف الاجتماعية الثلاث، قواعد خاصة تنظم سلوكها، فيكون على المنتجين الطاعة، ويتصف الجنود بالشجاعة، أما الحكام فهم يحكمون بالحكمة والمعرفة الفلسفية، ويربط بينهم جميعاً رباط العدالة، لتنظيم العلاقة بين مختلف الطبقات والفئات.[1]

وقد لاحظ الباحثون وجود تشابه كبير بين وصف أفلاطون للمدينة الفاضلة في كتابه عن الجمهورية - خصوصاً في تقسيم المجتمع إلى طبقات، وقيام الفلاسفة بدور الحكام في المجتمع المثالي - وبين ما كتبه سقراط في وصف المجتمع المصري القديم، الذي كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: قسم العاملين سواء في فلاحة الأرض أو الحرف، وقسم الجيش والقوات العسكرية المسؤولة عن حماية البلاد من الاعتداءات الخارجية، وحماية النظام في الداخل، وقسم الكهنة الذين يشرفون على طقوس العبادة، وهم الذين يتلقون العلم والمعرفة، ومنهم العلماء والمهندسون والكتبة والموظفون، وهم الذين يتولون إدارة البلاد تحت إشراف الملوك، بل إنّ أحد الكتاب اليونان القدامى ويسمى كرانتور" كتب بعد فترة وجيزة من وفاة أفلاطون يقول:

"كان معاصرو أفلاطون يسخرون منه ويقولون إنه ليس من ابتكر جمهوريته، وإنما اقتبسها من النظم المصرية.

---

[1] راجع: أفلاطون: الجمهورية ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨م، الدكتور فؤاد زكريا: دراسة لجمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨م).

- Taylor, A.E.: plato, The Man and his works, 1952.
1940.

كما قال ماركس في العصر الحديث في الجزء الأول من كتابه "رأس المال":

"إنّ جمهورية أفلاطون، في ما يتعلق بمعالجتها لقضية تقسيم العمل على أنه المبدأ المكوِّن للدولة، ماهي إلاّ تصور أثيني خيالي لنظام الطبقات المصري".

من الواضح إذن أنّ أفلاطون - وهو أهم الفلاسفة اليونان إطلاقاً - في جمهوريته، التي هي أهم أعماله، تأثر بالنظم والاعتقادات المصرية القديمة.

وقصة زيارة أفلاطون لمصر هي قصة متواترة بين القدماء، لم يحاول واحدٌ منهم التشكيك فيها أو إنكارها، وما يؤكد هذه الزيارة هو ما ذكره أفلاطون نفسه عن نماذج الفن المصري القديم من رسم ونحت، والذي لا يمكن أنْ يصدر إلاّ عن شخص أتيحت له فرصة الإطلاع شخصياً على نماذج عدة منه، بل ومن مراحل تاريخية مختلفة، فقد تحدث (أفلاطون) عن الفن المصري القديم في محاورته (القوانين) [1] قائلاً، إن المصريين قاموا بعمل "قائمة تحتوى على نماذج موحدة من الرسومات"، يتبعها الرسّامون في أعمالهم ولا يخرجون عنها، ولهذا فإنّ من يشاهد رسوما لهم القديمة يجد أنها لا تختلف في أي شئ عن رسوماتها الحديثة، (أي في عصر أفلاطون نفسه خلال القرن الخامس ق.م.)، فهي تقوم على أساس فني واحد، وفي مصر، تم وضع أسس ثابتة غير متغيرة لتنظيم الألحان الموسيقية "عن طريق القانون"، وذكر أنّ هناك قواعد جمالية رياضية مطلقة ثابتة - تنتمي إلى العالم الإلهي المقدس- يجب التعرف عليها وتقنينها حتى يلتزم الجميع بإتباعها، وهي تؤدي إلى تقدم الفن والمعرفة.

كما تظهر دراسة تاريخ الفن المصري أنّ المصريين كانوا يعتقدون أنّ الفن الذي يقوم على نظام دقيق من النسب والأبعاد، إنما هو يعبر عن شكل سامي مطلق دائم الوجود، لأنّه يُعبر عن نظام الكون وليس عن مظهره ولهذا رأى أفلاطون أنّ الفن المصري لا يحاول محاكاة الطبيعة في مظهرها، وإنما يسعى إلى التعبير عن الحقيقة الخفية وراء هذا المظهر، فالفن عنده يجب أن لا يعبر عن العالم الذي نراه بأعيننا، ولكن عن الوجود الكوني الذي ندركه عن طريق التحليل الفلسفي والعلمي، وأصر على ضرورة أن يكون العمل الفني جميلاً، فالجمال

---

(1) Orient, Revue de Philologie 1947, p.5-45 - Festugi

شرطٌ أساسيٌ عنده في الفنون، إلاّ أنّ هذا المفهوم يتفق تماماً مع الفنانين المصريين الذين يرون أنّ الجمال الحقيقي هو جمال الروح والفكر وليس جمال العالم المحسوس [1]

وهكذا يتبين لنا من تعليقات أفلاطون على الفن المصرى، ليس فقط أه لابد واطلع على العديد من نماذجه شخصياً، بل وتعرف على الطريقة الحرفية التى اعتمد عليها المصريون فى تنفيذ أعمالهم الفنية، مما لا يدع فرصة لإنكار الروايات التى تواترت على التأكيد بأنه زار مصر وقضى بها بعض الوقت، وهذا يدحض إصرار الباحثين الغربيين الآن على عدم ذكر رحلة أفلاطون بالذات إلى مصر، عند الحديث عن حياته ومصادر معرفته، بل إن بعضهم يذهب إلى حد إنكار هذه الواقعة صراحة، ولا يخفى علينا أن السبب فى ذلك الإصرار - على التشكيك فى هذه الزيارة وإنكارها- هو أن فلسفة أفلاطون تمثل القاعدة الأساسية التى قامت عليها حضارة الغرب المسيحى منذ عصر الرومان، وحتى وقتنا هذا، فلوثبت أنه تعلم أفكاره من مصر لانهارت الحجة التى يستندون إليها للقول بتفوق العقل الآرى، وتخلف الشرقيين، لهذا كان من الضرورى لأصحاب النظريات العصرية الحديثة رفض وجود أية علاقة بين أفلاطون ومصر، حتى يصح ادعاءهم الكاذب بتفوق الرجل الأبيض [2]

وهكذا يؤكد برنال - من خلال بعض الإشارات التى وردت فى كتابات اليونان القدماء - على وجود أثر مصرى-شامى فى الحضارة اليونانية القديمة، فقد اعترف المؤرخون اليونان أنفسهم بفضل الشرقيين عامة ومصر خاصة على اليونان، وتتلمذ فلاسفة اليونان مثل فيثاغورس وأفلاطون على أيدى المصريين.

إن بعض الأفكار التى اعتماد البعض أن ينسبها إلى الحضارات التى أعقبت الحضارة المصرية، شبق لها أن رأت النور قبل ذلك بأكثر من ألف سنة وأن الكثير من الفلاسفة اللاحقين لم يفعلوا أكثر من ترديد، أو العودة إلى بعض الخواطر الحيوية التى ومضت فى مصر القديمة.

---

[1] راجع: 1857

أفلاطون، محاورة "فايدروس"، ترجمة الدكتورة أميرة حلمي مطر، دار المعارف، ١٩٦٨م:، الدكتورة أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص٢٣٣ وما بعدها.

(٢) أحمد عثمان، الحياة، لندن، ٧ يونيو ١٩٩٦م ٢١ محرم ١٤١٧ هـ العدد ١٢١٥٦، ص ٢١

لقد نحت المصريون ورسموا أو لونوا عالما متنوعا من النصوص، إن أفخم العمائر وأبسط أشياء الحياة اليومية، تشهد جميعها على حد سواء على أقدم فكر عبر عنه البشر فى لغة موضوعية، تخاطب العين، كما تخاطب العقل، وصاغها شعراء الطبيعة، ومن ثم تعرض على عقولنا وقلوبنا، ثلاثة آلاف سنة من تاريخ العالم، ثلاثة آلاف سنة من الفكر الذى يفيض ورعاً مقدساً، ثلاثة آلاف سنة من فن ذى مواضيع ميتافيزيقية .

لم تعد مصر القديمة فى أعيننا فى الوقت الراهن ظاهرة معزولة لمجرد جهلنا بها، بل عادت لتحتل مكانها البالغ الأهمية فى ملحمة تاريخ العالم، ولأنها تستمد أصولها من قلب القارة الأفريقية، ومن ما قبل التاريخ الآسيوى على السواء، فإنها فى جانب منها، هى أم الحضارات المعروفة بالحضارات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) فهى تسبقها وتلقى عليها ضوءاً جديداً[1] .

---

[1] كلير لالويت: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة " الترجمة العربية ماهر جويحاتى، مراجعة، الدكتور طاهر عبد الحكيم، دار الفكر القاهرة–باريس، المجلد الأول، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٦م . ص ٢١–٢٢ من المقدمة.

وحول هذا المعنى يقول (بيير جريمال Pierre Grimal):

"علينا نحن أهل الغرب أن نسلم بأن كل مافى الثقافة الإنسانية ليس من إبداع الإغريق والهللينية، إن دورهم هو من الأهمية بمكان حتى أنه لا يحتاج إلى مزيد من الإضافات، وقد أشادوا هم أنفسهم بالحكمة المصرية، وكانوا يعلمون أكثر منا عما يتحدثون، فعلى مر الزمان، أثارت حضارة مصر والبلد التى ازدهرت فيه هذه الحضارة فضول القدماء (والإغريق والرومان، هم قدماء العالم الغربى)، إنها بداية (السر المستور)، وكان يلمح بالطبع، واجهتها المطلة على البحر، ويعرف أنه قد اقترب منها، من لون الماء الذى صبغه النيل المحمل بالطمى"[١].

لهذا فنحن نرى أن مدارس الفكر العنصرية التى زعمت تفوق الجنس الآرى الأبيض، لا تستند إلى حقيقة من تاريخ، وإنما تقيم دعواها على فلسفة عنصرية عدائية دعائية، وبالطبع فإن مثل هذه الفلسفات التى لا تستند إلى جوهر حقيقى من الأدلة لا تدوم طويلاً ومصيرها إلى نهاية محتومة، وما موسوعة برنال عن "أثينا السوداء" سوى محاولة من بعض المفكرين الغربيين لنقض الفكر الآرى" المتعصب، إلا أن هذه النظريات الاستعمارية لن تنتهى إلا إذا عاد الإنسان الشرقى إلى الإمساك بزمام العلم والمعرفة من جديد، فهذا هو الدليل القاطع على أنَّ الحضارة الشرقية لم تمت بعد، وإنما تعود فى بعثٍ جديد.

رابعـــــــاً: تعقيب:

إضافة إلى ملاحظاتنا التى سبق ذكرها، خاصة أثناء حديثنا عن الذين تعصبوا للعقلية الغربية منكرين دور وقيمة التراث الشرقى القديم، لنا وقفتان:

الأولى:

ليس هناك حدُ بدأ عنده التجريد أو التنظير، ذلك أنه– بالنسبة للإنسان يمكن التأكد من أنه منذ نطق يكون جرد، على أساس أن الكلام عبارة عن تجريد

---

[١] ص ١٢–١٣ من التقديم لكتاب كليرلالويت " نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة"، المجلد الأول.

للواقع، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد[1] ، فكلمة (الفرجار)- مثلاً - لا تعنى فرجاراً بعينه، مع ما يلزمه من خصائص فردية، بل الفرجار على العموم، أى نموذجاً أو جنساً معيناً من الأشياء، سواء أكان طوله ١٤ أو ١٥ أو ١٦ سم، سواء أكان مصنوعاً كله من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك... الخ والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى.

ومع هذه الخاصية للكلام، يرتبط تكوين المفاهيم واستعمالها، أى التفكير النظرى، " فبفضل الكلام بالذات، أصبح بإمكان الوعى استعمال لا ما تقدمه الإحساسات فى وقت معين فحسب، بل وما قدمته فى السابق، وما يمكن أن تقدمه فى المستقبل، وبفضل ذلك نشأت إمكانية فصل خاصة الشيء ذهنياً، عن الشيء ذاته، إمكانية تجريد بعض خواص الأجسام عن بعضها الآخر، مما وسع كثيرا نطاق المعرفة[2] .

ولقد أزدادت قدرة الإنسان على التعميم عن طريق اللغة تدريجياً، وكانت هذه القدرة عند الإنسان البدائى هزيلة رغم بدئه بالكلام.

وبفضل قدرة الإنسان على التجريد يستطيع أن يخاطب إنساناً آخر، وأن ينقل إليه بالكلمات مضمون أفكاره، أى أن يمارس عليه الفعل، ويلعب التعميم وتبادل الأفكار دوراً فى حفظ التجربة المكتسبة، ونقلها، وفى تنمية الفكر والمجتمع، وكل فرد بعجز لوحده جسمانياً أن يعانى مباشرة، ويدرس جميع مواضيع الواقع، وجميع ظاهراته، وتوجد ظاهرات لا نستطيع إدراكها مباشرة مثل الأحداث الماضية للحياة الاجتماعية، ولكننا نستطيع معرفتها بواسطة الكلمة المكتوبة (الوثائق) والرواية الشفهية.

فالإنسان -يمتلك، لا نتيجة جهوده الشخصية وحدها، بل -بمساعدة اللغة والنطق- المعارف المكتوبة والمتراكمة خلال أجيال، وتعتبر هذه المعارف- معارفنا بواسطة النطق.

---

[1] جارودى (روجية): "النظرية المادية فى المعرفة" تعريب إبراهيم قريط دار دمشق -بدون تاريخ)،ص ٢٣٠

[2] جارودى: "النظرية المادية فى المعرفة"، ص ٢٣٨.

وهذه المعارف المكتسبة بالنطق كانت نتيجة للتجربة المباشرة، التي عبرت عنها الأجيال قبلنا، وتثبيتها بالنطق، وهكذا يتحرر كل جيل بفضل اللغة من ضرورة قطع الطريق الطويل مرة ثانية، طريق البحث الحقيقة، الذى قطعته الأجيال السابقة، ويبدأ آخر حيث انتهى سلفه، وهكذا يتم نمو المعرفة التدريجى[1].

فالمفاهيم هى تعميم تجربة الناس المغرقة فى القدم فى جهدهم لعكس الواقع الموضوعى، من خلال ممارسة الناس الاجتماعية والإنتاجية وينتج عن ذلك أن المفاهيم غير العلمية، أي المفاهيم التي تعكس العالم بشكل مشوه، تجهر بالتتابع، كما تبدلت مفاهيم الناس عن المادة أو الذرة مثلاً منذ ديمقرايطس حتى اليوم، وكذلك عن المفاهيم الخاصة بالفيزياء، وسائر العلوم، وكذلك مفهوم الزمان والمكان، والمفاهيم المتعلقة بالعلوم الاجتماعية.[2]

وهكذا يتضح لنا أنَّ الإنسان منذ نطق يكون جرد، فكل كلمة هى تجريد، وكل تجريد هو سلسلة من الممارسات العلمية الطويلة، وسلسلة من العمليات العقلية العليا، كالتحليل والتركيب، وبالتالى يتأكد خطأ ادعاءات أبتدأ التنظير والعلوم النظرية مع اليونان.

وعلى العكس فإنَّ ما قدمه الإنسانُ قبل اليونان، هو كالمحيط بالنسبة لما قدمه اليونان، فخلال مئات الألوف من السنين، من خلال العمل والممارسة العملية والمتكررة، وصل الإنسان إلى مجمل إنسانيته، إلى اللغة والآلة، وإلى المجتمع، إلى معظم الصناعات والحرف والممارسات الحياتية كالصيد والتجارة والزراعة، وألوان أخرى كالحياكة والحدادة وبناء المساكن وأعمال الري، والتعدين، وشتى أمور المجتمع، ونظمه وعاداته، وقوانينه وأعرافه وقيمه وسائر العلوم والفنون، وسائر قابليته الفكرية العليا، كالأحكام العقلية والمبادئ المنطقية والرياضية وسواها، ومن الغلط الشنيع بعد هذا أن يدّعي مُدع أن العلوم بدأت، وكذلك سائر الفنون.. الخ مع اليونان، أو أنَّ ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التفسير.

---

[1] نفسه، ص ٢٤٠ فما بعد.

[2] جارودى: ص ٢٦٧، ٢٨٧.

إنّ هذه النظرية المستعلية الخاطئة تماماً، متأتية بالدرجة الأولى، من اعتبار أنّ العلم والفكر والحضارة الجديرة بهذه الأسماء، لا تتمثل إلاّ في بناء الفلسفات المثالية، واحتقار الواقع، والاستعلاء على العمل، وتقسيم ما ينتجه الإنسان إلى عمل يدوي حقير، وآخر نظري جليل مقطوع الصلة بالأول، إنّها نظرة متأتية، وبالتأكيد من جهل أصحابها بالتسلسل التاريخي لبناء المعرفة والعلم من خلال العمل وحياة الناس الاجتماعية بواسطة النطق، إنما نظرة متأتية من بناءات خاطئة لتفسير المعرفة البشرية، تقوم على الثنائية الحادة بين العقل والجسم، والعقل والعالم الخارجي، واعتبار العقل فطرياً، ثابتاً، مطلقاً، ومستعلياً عن التجربة والعمل، والعالم الخارجي.

والحقيقة أنّ أي تنظير أو تجريد ذهني، إن أي بناء عقلي، يتقوم ويتعدل- كما يقول الدكتور الألوسي [1] - من خلال التجربة، والممارسة الحياتية، كما أنّه ينبع أساساً من هذا الأساس، إنّ أي عمل يتضمن جملة معقدة من المفاهيم والأحكام والعلاقات العقلية العالية، كما أنّ أية معرفة لشيء لا تتم إلاّ من خلال العمل، من خلال ممارسته واختباره مباشرة عن طريق ممارسته.

وحول هذا المعنى يقول الدكتور فؤاد زكريا:

" ... ولقد أحس الفلاسفة والمفكرون من عهدٍ قريب نسبياً منذ حوالي قرن ونصف من الزمان، بأنّ الفكر المجرد لابد أنْ ينتهي إلى طريق مسدود، وظهر لديهم وعيٌ واضح بأزمة الفكر الخالص". وأنه قد تأكد "ثبوت عجز العقل في مجاله النظري الخالص عن الانتهاء إلى رأي قاطع حاسم في المشكلات الأساسية التي ظلت الفلسفة تشغل نفسها بها حتى ذلكَ الحين، والتأكد من أنّ الحل لهذه المشكلات إنما يكون في المجال العملي، لا النظري، وهذا العامل كان نتيجة جهود مجموعة من كبار الفلاسفة على رأسهم إيمانويل كانت [2].

ولابد أنّ المقصود هنا، بعجز العقل، "العقل التأملي"، إنّ مشكلات الميتافيزيقا مشكلات لا تُحل إلاّ بالرجوع إلى العلوم الاجتماعية التاريخية، والعلوم الطبيعية الحديثة، أي علوم الأنثروبولوجيا، ونشأة الحضارات، وحياة وأفكار

---

[1] الدكتور حسام محي الدين الألوسي: بواكير الفلسفة قبل طاليس، ص ٧٥.

[2] الفكر المعاصر: العدد (٤٣) سنة ١٩٦٨م.

البدائيين، ثم العلوم الطبيعية المعاصرة، حيث سنجد في العلوم الأولى، عند البدائيين، بداية المشكلات الميتافيزيقية.

ونخلص إلى القول أنه من الجهل تماماً أنْ يحذف الإنسان دور وأثر أية خدمة يقدمها الإنسان مهما كانت أو بدت ضئيلة، في مجالات العلوم، واستكشاف الطبيعة والحِرف، والاختراعات، وشتّى المجالات الأخرى، كما أنّه من المبالغة وعدم الصواب تفخيم هذا الدور أو ذاك، إلى حد نسيان الأدوار التي مهدت له، أو التي تلته، كما فعل أنصار المعجزة اليونانية، كذلك فإنه من الخطر عزل الأمور بعضها عن بعض في مجال التقييم، إنّ أي اختراع لآلة أو تحسين لها، يتضمن عمل البشرية كاملة، ومن ذلك، كم يظهر مجانباً للعدل والموضوعية قول (برنيت) ومؤيديه، عن الدور العالي الابتكاري المحض لليونان، والدور الضئيل لسائر من سبقهم، إنّ الخطوة الأولى التي يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشي هي ليست أصغر ولا أبطأ ولا أقل أهمية ودلالة على القدرة، من عدوه السريع فيما بعد، إلاّ بمنظار انعزالي جامد ومتعصب.

والثانية:

والذين يريدون أنْ يبدءوا الفلسفة بطاليس أول فلاسفة اليونان (القرن السادس ق.م) على أساس أنّ هؤلاء تركوا التفسير الميثولوجي، إلى الطبيعي، ينسون أنّ التفسيرات الطبيعية هذه ليست إلاّ جزء من سلوك الفيلسوف، فهو عملياً يزاول عادات قومه ومعتقداتهم وتحول في ذهنه تصورات مجتمعه، ثم ينسى هؤلاء أنّ أوج ازدهار الفلسفة اليونانية متمثلة في تكوّن المدارس الفلسفية بالمعنى العميق الكامل على يد أفلاطون وأرسطو والرواقية والأفلاطونية المحدثة، هو نفسه - أي هذا الأوج - حضيض العقلانية والرجوع إلى نفس المسلمات الغيبية للبدائيين، موضوعة بكلامٍ منمق، ونظام فلسفي يخفي على غير الخبير معدنها الميثولوجي البحت [1].

وكان عشاق "العقلانية" وهم يسبغونها على "الروح اليونانية" لا يهمهم هل ما يتحدث عنه هؤلاء موجود حقاً لحواسنا ولخبرتنا أم لا؟ المهم أنْ يوضع بشكل

---

[1] بواكير الفلسفة قبل طاليس، ص ٨٢.

منطقي متلاحق ومتساوق، ومبهرج بإطار من الحجج والأدلة النظرية المفعمة بروح التعالي على الحس المشترك البسيط للإنسان العادي.

وإلا فأي شئ في ميتافيزيقا أفلاطون موجود؟ مُثله، أم آلهته، أم عالم التناسخات؟ ومع ذلك فهذه فلسفة عقلانية، ليس لشيء إلا لأنه أدار الكلام بأسلوب منطقي وعقلاني، فكأن معنى العقلانية مساو لمعنى التخيل والابتداع على نحو ما يبتدع الفنان صورة مجنحة لا تمت إلى مخلوق بعينه بصلة - والفنان له حقه في الابتداع، وليس للفيلسوف مثل هذا الحق، فواجبه فهم نفسه، وفهم ما يحيط به، لا أن يخلق عوالم يلجأ إليها هرباً، فلا يحل مشاكله ومشاكل الواقع، بل يزيد الطين بلة بخلقه عوالم أخرى تحتاج إلى حلٍ وفهم هي الأخرى[1].

---

[1] تجدر الإشارة إلى أنّ أفلاطون وضع لكل موجود في العالم الحسي "مثالاً" غير مادي في عالم خارج العالم المحسي المادي، وهذه المثل هي الوجود الحقيقي عنده، وليس للأشياء المادية الحسية سوى وجودات ثانوية، أو هي تشوية ومحاكاة وأشباح لذلك العالم، وعالم المثل فيه نماذج عقلية، لا مادية، لكل موجود حسي في عالمنا، قبيحاً أم جميلاً، جزئياً أم كلياً، وحتى للعلاقات، وقد وجه أرسطو إليه عدة انتقادات منها: أنّ أفلاطون ضاعف العالم دون أنْ يُفسّر العالم الذي نعيش فيه.

أنظر: Aristo: Met, 1. 990 b 34 وبقية نقده الموضع نفسه، وأنظر: -

- **Zellet: Outline of the History of Greek Philosophy p. 131, 173.**
- **Burnet: Greek Philosophy, p. 206**

حيث يوضح انتقادات أفلاطون نفسه لنظريته في محاورة "بارمنيدس"،

وراجع : كريم متى : الفلسفة اليونانية ص ١٨٥،

يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة ثالثة ١٩٥٩/، ص ١٧٤ وما بعدها. وإلى مثل هذا المعنى يذهب هانزريشباخ) - أحد ممثلي الوضعية المنطقية - فيعرض نظرية أفلاطون في "المُثل"، كمثلٍ على الاستدلال الوهمي الافتراضي، وينعي على المحاولات التي قام ويقوم بها الدارسون، لإضفاء صفة علمية أو لتبرير أخطاء جسيمة ترتكبها هذه المثاليات، والفلسفات التأملية، يقول - في نقده لفلسفة أفلاطون-: " .. وإنه ليبدو أنّ الفيلسوف عندما يصادف أسئلة يعجز عن الإجابة عليها، يشعر بالإعراء لا يقاوم لكي يقدم إلينا لغة مجازية، بدلا من التفسير، وإننا لنجد العقل الفلسفي، طوال تاريخ الفلسفة، مقترنا بخيال الشاعر، فحيثما كان الفيلسوف يسأل كان الشاعر هو الذى يجيب، لذلك كان من الواجب، عند قراءتنا للعرض الذى يقدمه الفلاسفة لمذاهبهم، أن نركز انتباهنا فى الأسئلة، لافى الإجابات المقدمة.."=

ومعنى هذا أنَّ دعوى ابتداء الفلسفة مع اليونان دعوى فارغة، فالعلوم وهى جزء أساسى من الفلسفة بمعناها الشامل سابقاً، نشأت قبل اليونان، والميتافيزيقا، وهى معنى الفلسفة الخاص والأهم، لا تعنى المعقولية، بل مجرد موقف، وحظ الفلسفة اليونانية من العقلانية، متمثلة، فى كبريات فلسفاتها، وهى فى الجوهر، حظ أى من المواقف البدائية قبلهم، ومعنى هذا أنَّ فلسفات اليونان الميتافيزيقية الكبرى هى مجرد عمل (بان) استمد المواد الخام، بل ربما الخطة عموماً لبنائه الذى يبنيه، من الشعوب البدائية، واعتقادات الحضارات المعاصرة له، والمتقدمة عليه.

والفلسفة لم يكن لها يوم منه بدأت، وفيه ظهرت، شأنها شأن العلم، وهذا حال كل الفعاليات البشرية، كالفنون والعادات وغيرها، وتقدم الدراسات الخاصة بأفكار الشعوب البدائية الغابرة، وما يقدمه علم النفس والاجتماع، عن تطورنا من الطفولة إلى النضوج، أفراداً، وعلى نطاق البشرية جمعاء، قدمت معلومات، أظهر أنَّ البشر مروا بمراحل، تنامى فيها عبر آلاف السنين، فكرهم، وتجمعت خبراتهم، حتى ساعدتهم على تمييز الأشياء، واستنباط المبادئ العامة للتفكير وغير ذلك.

وباختصار، فإنَّ القارى المنصف لحضارات الشرق القديمة، سوف يلتقى بالفلسفات المثالية والواقعية والمادية والروحية والواحدية التعددية، كما سيلتقى بالنزعات العدمية واللأدرية، ومذهب الشك الفلسفى، فضلاً عن مناقشات مستفيضة لمفاهيم فلسفية أساسية : كالجزئى والكلى والفردى والصيرورة، والوجود والعدم، والدوام والثبات، والهوية، والمطلق والنسبى، والذات العارفة والموضوع المعروف، كما سيجد مناقشات لطرق المعرفة الممكنة أو ما يسمى بنظرية المعرفة، مما يؤكد أنَّ العقل الشرقى لا يقل عمقاً وأصالة عن العقل الغربى.

وباختصار أيضاً، أنَّ جميع ما يحويه التفكير الإغريقى، يبدو أمامنا على حقيقته، إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، ولن نقع فى خطر الجهالة إذا ما عمدنا إلى جمع معلومات عن حالة التفكير النظرى فى أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقى، وهى حضارات الشرق القديمة.

=(ها نزريشباخ) : "نشأة الفلسفة العلمية" ترجمة الدكتور فؤاد زكريا. القاهرة ١٩٦٧م. ص ٢٦-٣٥.

ونتيجة لكل ما تقدم نستطيع أنْ نقول : إن الفلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنه- وكما سبق - ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أنْ يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم.

فلم يعد مقبولاً الرأى القائل بأصالة الفكر اليونانى، بان من سبقهم لم يصلوا إلاّ إلى طور العلم العلمى فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من إنجازات فى مجال العلم والمحاولات الأخرى قبل اليونان بوقتٍ طويل.

إن البحث الموضوعى الهادئ، يؤدى إلى الاعتراف بوجود "قفزة " أو تُبدل كيفى فى مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجئ الحضارات اليونانية، إلاّ أنه تبدل حدث من تجمع كمى هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان.